الفصل الرابع

أثر الدعاة والطرق الصوفية
في نشر الإسلام بين الأفارقة

يحتوي هذا الفصل على:

أولا : الدعاة.

- أهم مراكز الدعوة
- أشهر الدعاة المسلمين ودورهم في نشر الإسلام جنوب الصحراء الكبرى
  1- الشيخ عبدالله بن ياسين الجزولي
  2- الإمام محمد المغيلي
  3- الإمام أحمد الجراني

ثانيا: الطرق الصوفية.

التصوف أو الوعي الصوفي

1- الطريقة القادرية
2- الطريقة التيجانية
3- الطريقة السنوسية
4- الطريقة الميرغنية

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الرابع

أثر الدعاة والطرق الصوفية
في نشر الإسلام بين الأفارقة

اشتمل الدين الإسلامي على مجموعة من المبادئ التي تتعلّق بالعقيدة والإيمان والسلوك، وهذه المبادئ جذبت الأفارقة إلى هذا الدين، وسأتحدث عن أهم هذه المبادئ التي وجد فيها الأفريقي نفسه، وساهم في نقلها الدعاة المسلمون بجانب إخوانهم المهاجرين والتجار وأصحاب المذاهب والفرق الصوفية.

يقول ديشان في كتابه الديانات في أفريقيا السوداء: «... وقد يسّر انتشار الإسلام أمرٌ آخر هو أنه دين الفطرة بطبيعته، سهل التناول، لا لبس ولا تعقيد في مبادئه، سهل التكيف والتطبيق في مختلف الظروف، ووسائل الانتساب إليه أيسر وأيسر، إذ لا يطلب من الشخص لإعلان إسلامه سوى النطق بالشهادتين حتى يصبح في عداد المسلمين»[1].

إن سماحة هذا الدين وبساطته ويسره، جعلت الأفريقيين يسارعون إلى اعتناقه عن حبّ ورضا وطواعية، ولم يُكره أحد منهم على الدخول فيه، لأن الإكراه ضد طبيعة هذا الدين يقول تعالى: ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِن الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعروَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (255) ﴾[2]، ويقول الحق تبارك وتعالى:﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ﴾[3]، وقال تعالى مخاطبا نبيّه عليه الصلاة والسلام: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾[4].

---

(1) أبو سعد، عبد السلام: أهم العوامل التي ساعدت في انتشار الإسلام في أفريقيا، مجلة كلية التربية، العدد(16) لسنة 1982م، جامعة الفاتح (طرابلس، 1402هـ/ 1982م) ص 118.

(2) سورة البقرة: الآية (255).

(3) سورة الكهف: من الآية (29).

(4) سورة يونس: الآية (99).

وقد وجد الأفارقة في هذا الدين فضيلة طيبة حبيبة إلى قلوبهم وهي فضيلة المساواة بين كل المسلمين فمن قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله (ﷺ)، كان أخاً لكل مسلم بصرف النظر عن نسبه وأصله وجنسه، فالكل سواسية أمام الله، ولا يفضل الواحد صاحبه إلا بمقدار صلته بربّه ومقدار تخلُّقه بالأخلاق الفاضلة ونشر الخير بين الناس [1]، والقرآن الكريم يؤكد ذلك بقوله تعالى:

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13) ﴾ [2].

فتعاليم الإسلام تؤكّد الأخوة، التي ترتفع فوق العصبيّة القبلية والجنسية يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [3]، والرسول (ﷺ) يقول: ﴿ الْمُسْلِمُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ إِذَا اشْتَكَى عَيْنُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ، وَإِذَا اشْتَكَى رَأْسُهُ اشْتَكَى كُلُّه ﴾ [4] ويقول عليه الصلاة والسلام: ﴿ مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِم وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلِ الجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَه سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى ﴾ [5]، والإسلام يدعو الناس كي يحب بعضهم بعضاً بل يجعل الحب غاية الإيمان يقول الرسول (ﷺ): ﴿ وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حتى تُؤْمِنُوا وَلاَ تُؤْمِنُوا حتى تَحَابُّوا.. ﴾ [6].

وقد بيّن الرسول (ﷺ) مبدأ المساواة في خطبته (في وسط أيام التشريق) حيث بيّن للناس أنه لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح، فقال (عليه الصلاة والسلام): ﴿ يأيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا

(1) عبدالرحمن النجار: الإسلام في الصومال، ص 16.

(2) سورة الحجرات: الآية (13).

(3) سورة الحجرات: الآية (10).

(4) النووي: صحيح مسلم، 4/ 2000.

(5) المصدر نفسه، 4/ 1999.

(6) السجستاني، الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعت:سنن أبي داود، تحقيق:صدقي محمد جميل، دار الفكر (بيروت، 1423هـ/ 2003م) 4/ 350.

بالتقوىٰ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [1] وهذا التفاضل بالتقوىٰ لا يحرم صاحب حق من حقّه مهما كانت عقيدته بل يؤكد تلك الحقوق [2].

فالرسالة الإسلامية تُعنىٰ بالروابط الإنسانية، وتوجّه الإنسان نحو إدراكها والعمل علىٰ تقويتها، والدعوة الإسلامية هي دعوة إلىٰ إقامة تجمع إنساني ينبذ الجاهلية المادية ويتحلّىٰ بالصفات الإنسانية، دعوةٌ إلىٰ مجتمع يعطي أفراده حاجة بعضهم بعضاً [3]، قال تعالىٰ: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً(8) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلا شُكُوراً(9)﴾ [4].

وإلىٰ جانب الأخوة والمساواة، فقد حرّم الإسلام الظلم بين الناس، دون اعتبار لانتماء المظلوم أو الظالم قال رسول الله (ﷺ): ﴿ إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها.. ﴾ [5]، وعن عبد الله بن عمر (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: ﴿ الظلم ظلمات يوم القيامة ﴾ [6]، وقال عليه الصلاة والسلام:﴿ اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم علىٰ أن سفكوا دماءهم واستحلّوا محارمهم ﴾ [7].

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالىٰ: ﴿ يا عِبَادِي، أنّي حَرَّمْتُ الظُّلمَ علىٰ نَفْسِي وَجَعَلْتُه بَيْنَكُم مُحَرَّماً، فَلاَ تَظَالَمُوا.. ﴾ [8].

---

(1) ابن حنبل، الإمام أحمد بن محمد: المسند، شرح: أحمد محمد شاكر، دار الحديث (القاهرة، 1415هـ/ 1995م) 5/ 411.

(2) ديرة، المختار أحمد: لتعارفوا، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد (20) لسنة 2003م، كلية الدعوة الإسلامية (طرابلس، 2003م) ص 8.

(3) أضبيعة، أحمد محمد: الرعاية الاجتماعية في الشرائع الإلهية، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد (20) لسنة 2003م، كلية الدعوة الإسلامية (طرابلس، 2003م) ص 673.

(4) سورة الإنسان: الآيات (8 – 9).

(5) النووي: صحيح مسلم، 3/ 1315.

(6) البخارىٰ: صحيح البخارىٰ، 2/ 864.

(7) النووي: المصدر السابق، 16/ 125.

(8) الأحاديث القدسية، باب تحريم الظلم، مكتبة دار التراث (القاهرة، بدون تاريخ) 1/ 264.

والناظر لمجمل الآيات القرآنية بتدقيق وإحصاء، يجد أن العقيدة الإسلامية مبنيّة على دفع الظلم، لكثرة ما فيها من الآيات التي تحرّمه وتنكره، ويكفي أن القتال لم يشرع فيها إلاّ لرفع الظلم والدفاع عن النفس، ودفع أذى الآخرين والوقاية من ظلم [1]، قال تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَّ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [2].

والعلاقات الاجتماعية في ظل الإسلام تقوم على أسس ثابتة وقوية ودائمة، فبالإضافة إلى روابط الدم والقرابة والمصلحة المادية المشتركة، نجد رابطة الإيمان بالله الواحد الأحد، والعمل الصالح في ظل المساواة والعدالة الاجتماعية [3]، يقول تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهَّ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [4].

ومن ضروب الرحمة والتسامح في الإسلام، حضُّ الإسلام على الرفق بالرقيق وحسن معاملتهم يقول الرسول (ﷺ): ﴿ إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُم اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدَيْهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُل وَلْيُلْبِسْه مِمَّا يَلْبَسُ، ولاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ ﴾ [5]، وأوصى بهم الرسول (ﷺ) في آخر خطبة له، كما أمر بمناداتهم بـ(فتاي وفتاتي) بدلاً من عبدي وأمتي، وأباح الإسلام الزواج بالأمة المؤمنة ومنع الزواج بالحرّة المشركة، وجعل للزوجة الرقيقة حقوقاً على زوجها مثل الزوجة الحرة، كما جعل الإسلام عتق الرقبة كفّارة للقتل الخطأ، ولإفطار يوم من رمضان عمداً للقادر على الصوم، وكفارةً لِلظّهار، وحبّب الإسلام إلى أتباعه إعتاق من في أيديهم من الأرقاء، ومن ليس في أيديهم ممن يستطيعون شراءهم وإعتاقهم، إذ جعل تحريرهم عملاً صالحاً يؤدّيه المسلم شكراً لله على نعمه الجزيلة، قال تعالى: ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ(11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ(12) فَكُّ رَقَبَةٍ(13) ﴾ [6]، وقال الرسول (ﷺ): ﴿ من اعتق رقبة مسلمة اعتق الله بكل عضو منه عضواً

(1) المختار ديرة، المرجع السابق، ص 9.
(2) سورة الحج: الآية (27).
(3) محمد أضبيعة، المرجع السابق، ص 672.
(4) سورة فصلت: الآية (33).
(5) النووي: صحيح مسلم، 11/ 111.
(6) سورة البلد: الآيات (11 – 13).

من النار حتى فَرَحَهُ بِفَرحِه ﴾ [1] وقالت أسماء بنت أبي بكر (رضي الله عنها): ﴿ كنَّا نؤمر عند الكسوف بالعتاقه ﴾ [2].

فقوّة الإسلام الذاتية (المتمثلة في بساطة العقيدة ووضوحها، وحضارية تعاليم الإسلام التي تجمع بين الشمولية الدائمة والواقعة المتجدّدة، والموازنة بين المصالح المادية والمطالب الروحية على نحو ينسجم مع الفطرة البشرية السليمة، ويعمل على تنمية الشخصية الإنسانية المتكاملة على المستويين الفردي والاجتماعي) وهي العامل الفاعل الذي جَذَب الكثير من ضيق الأديان إلى سعة الإسلام، لأنه دين البساطة والمحبّة والسلام، يدعو لسلام العالم وسلام الإنسان وأمنه، على يومه وغده [3].

لهذا كلّه فإن الإسلام يجد طريقه إلى القلوب سهلاً ميسراً، وحينما تصل دعوته إلى أية جهة من جهات الأرض فإن أهلها يسارعون إلى اعتناقه ويرتبطون ارتباطاً وثيقاً بإخوانهم المؤمنين، ويزداد ارتباطهم بالعرب الذين بُعث منهم رسول الله (ﷺ) الذي أخرج الإنسانية من الظلمات إلى النور، وقد وجد الأفارقة في الإسلام اليسر والسماحة فهو لا يشق على أحد، وتكاليفه ميسورة لكل إنسان، فإذا حان وقت الصلاة توضأ المسلم واتجه إلى القبلة ووقف على الأرض في أي مكان وأدّى صلاته، وإذا لم يجد الماء تَيمّمَ بالتراب الطاهر، والقرآن يقرر هذا اليسر في قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [4] وقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [5].

ويقرّر الإسلام الحرّية في جميع مجالاتها، الحريّة الشخصية وحريّة العقيدة وحرّية الرأي، ويحترم الإسلام الملكية الخاصة التي لا تضر بالغير، ويقرر المبادئ الأخلاقية الفاضلة، ويحثّ

(1) البخاري، صحيح البخاري، 3/ 290.

(2) عبدة، أحمد عبدة: التسامح في الإسلام، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد (17) لسنة 2000م، كلية الدعوة الإسلامية (طرابلس، 2000) ص 51 – 52.

(3) ميغا، حمزة مصطفى: الشيخ أحمد ديدات ومنهجه في الحوار والدعوة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية (طرابلس، 2005م) 1/ 91.

(4) سورة البقرة: الآية (184).

(5) سورة الحج: من الآية (76).

على العلم والسعي في الأرض، والنظر في ملكوت السموات والأرض وصولاً إلى تأكيد وحدة الخالق سبحانه وتعالى [1].

ورغم أن المسيحية تدعو إلى المحبّة والرحمة والسلام، إلاّ أن بعض المبشّرين بها كانوا بعيدين كل البعد عن هذه المبادئ السمحة، وهذه مناقشة جرت بين أحد القساوسة وأفريقي من السنغال حيث يقول القسيس: «لا بد أن يكون الله أبيض، فهو لم يخلق اللون الأسود فيما خلقه من ألوان النبات والأشجار والبحار، هل رأيت ثلجاً أسود ؟ أو مطراً أسود ؟ أو بحراً من الحبر ؟ هل رأيت ملاكاً في صورة سوداء ؟ أو هل رأيت نبيّاً أو رسولاً جاء من الجنس الأسود ؟ إن كل هذا دليل على أن الله أبيض، وأنه اختار الشعوب البيضاء لتقود الحضارة والإنسانية...»[2] هذا نموذج لتفكير غير المسلمين في علاقتهم بالأفارقة، أما الإسلام فنجده ينظر إلى الإنسانية وكأنها حديقة كبيرة تختلف ألوان أزهارها دون أن يكون للون فضل على آخر، يقول الرسول (ﷺ): ﴿ أنا سابق العرب وصهيب سابق الروم وسلمان سابق الفرس وبلال سابق الحبشة ﴾ [3] وطبق المسلمون عملياً هذه التوجيهات، فليس للون أو لوضع اجتماعي مكان في تكوين الأسرة، وكل ما يشترطه الإسلام هو التراضي والقدرة على تكوين البيت، والقيام بأعبائه على أساس مستقر، وهذا هو جوهر الكفاءة في الإسلام يقول الإمام مالك (رضي الله عنه): «الكفاءة في الدين لا غير»[4].

فالإسلام لم يعترف بالتفرقة العنصرية، فهو لا يعرف حواجز الطبقات أو العرق أو اللّون ولا يميّز بين إنسان وآخر على أساس اللون والثروة، والإسلام هو الدين الوحيد الذي يحقّق للأفريقي آماله، وهو الدين الوحيد الذي يشبع له حاجاته ويحفظ له كرامته وإنسانيته [5]، وقد أدرك الأفارقة هذه الحقيقة عندما تعاملوا مع المسلمين منذ البداية، فعرفوا جيّداً أن

(1) عبدالرحمن النجار، المرجع السابق، ص 60 – 64.

(2) المرجع نفسه، ص 17.

(3) الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، 3/ 321.

(4) عبدالرحمن النجار، المرجع السابق، ص 17.

(5) عبدالسلام أبو سعد، المرجع السابق، ص 119.

الإسلام دين سلم وقناعة وحرّية، وليس دين تعسف وإكراه، [1]. ومن هنا اعتبر الأفارقة الإسلام ديناً إفريقياً قاموا بنشره بين قومهم، وطبّقوا مبادئه السمحة، وأخلاقه الحميدة، وقيمه السامية [2].

أولاً: الدعاة:

تميّزت رسالة الإسلام عن غيرها من الرسالات السماوية، أن ضمّت في صفوفها مختلف الأقوام والأجناس، وجعلت منهم أمة واحدة تدين بالوحدانية، وتسعى لتحرير الإنسان من الشرك والعبودية والضلال، وتقوده إلى طريق النجاة والطمأنينة والتقدّم، فمبدأ العمل والمساواة الذي سارت عليه الدولة الإسلامية منذ نشأتها، أتاح المجال لأبناء هذه الأمم (التي اعتنقت الإسلام وآمنت برسالته السمحاء) أن يلعب كل منهم دوره في الحياة، حسب قابلياته وإمكانياته، فلا غرابة أن برز المئات بل الآلاف من العلماء والمفكرين والدعاة الأفذاذ، الذين ساهموا في إرساء وبناء قواعد الإسلام في أفريقيا [3].

لقد اهتم خلفاء المسلمين بنشر الإسلام في القارة الأفريقية، إذ كان نشر الإسلام غايتهم المنشودة [4]، فالدعوة للإسلام واجبة على كل مسلم، يقول الرسول (ﷺ): ﴿ لأن يهدي الله على يديك رجلاً إلى الإسلام خير لك من أن يكون لك حمر النعم[5] ﴾، لذلك كان المسلمون الأوائل دعاة لهذا الدين، لِكون الدعوة جزءاً من حياة المسلم، فالدعوة تكليف عام وواجب ديني لا يمكن إفراده بخبر أو بحادثة معينة، ومن ناحية أخرى فإن الدعوة في الغالب تكون بقناعة شخصية مغروسة في الإنسان نفسه، من دون تكليف من الدولة أو تنظيم من قِبلها[6].

(1) علي الشطشاط: وسائل انتشار الإسلام، ص 467.

(2) رجب عبدالحليم: المسلمون في أفريقيا، ص 21.

(3) عبدالرحمن النجار، المرجع السابق، ص 19.

(4) علي الشطشاط: وسائل انتشار الإسلام في أفريقيا، ص 484.

(5) حمر النعم: لون من ألوان الإبل المحمودة التي كانت العرب تتفاخر بها، ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق: عبد العزيز بن باز، محمد فؤاد عبد الباقي، دار مصر (القاهرة، 1421هـ / 2001م) 7/ 478.

(6) البخاري: صحيح البخاري، 3/ 1096.

فالأفراد المسلمون لعبوا دوراً عظيماً في تاريخ انتشار الإسلام في أفريقيا، لأن افتقار الدعوة الإسلامية إلى طبقة كهنوت تقوم على نشر العقيدة، قد ضاعفت من مسئولية الفرد المسلم إذ عليه فعليه وحده يقع هذا العبء، وعليه وحده أن يؤدي هذا الواجب [1].

إن أعظم نشاط قام به الأفراد في ميدان الدعوة، الدور الذي قام به أفراد اكتسبوا حظًّا من التعليم الديني أو حجّوا إلي مكة، وتختلف ألقابهم باختلاف الجهات التي يعيشون فيها، فبعضهم يسمي (المرابط أو الألفا أو المعلم أو الفقيه) [2]، أو(الشيخ أو مولانا أو سيدنا)، وكان هؤلاء يحظون بأوفى نصيب من التقدير والاحترام [3]، وفي استطاعتهم التنقل بحرّية مطلقة من قرية لأخرى، أومن إمارة لأخرى، ويصادفون الرعاية والتشجيع أينما حَلُّوا، وهم ينشئون المدارس ويحفّظون القرآن، ويعلّمون الأطفال المسلمين والوثنيين على حدّ سواء، وقد تعلّم أكثرهم في مدارس المغرب أو في مصر، وقاموا بنشاط ملحوظ في نشر الدعوة [4].

ويطلق على هؤلاء اسم الدعاة، والمقصود بالدعاة هم الأفراد الذين تلقّوا قدراً من العلوم الدينية التي تؤهلهم لهذا العمل، وعلى رأسهم الفقهاء والعلماء والمشائخ والقرّاء والقضاة [5]، وقد امتدّوا بالدعوة الإسلامية نحو القارة الأفريقية، فعبروا الصحراء وحملوا معهم فكر المذاهب المنتشرة في الشمال في الأصول والفروع، بل وفي الاتجاهات السياسية التي تحمل طابعاً مذهبياً [6].

وكانت كل قرية في أفريقيا تقيم داراً لاستقبالهم، وكان الحكام والملوك والأفارقة سواء أكانوا مسلمين أم وثنيين، يعاملونهم باحترام كبير، وكانوا يتخذون منهم مستشارين ووزراء يصرّفون لهم أمور الدولة، وبلغ من إجلال الناس لأشخاص هؤلاء الدعاة، أنه كان لا يعترض لهم أحد بسوء أثناء انتقالهم من دولة لأخرى أو من جهة لأخرى، حتى لو كانت

(1) حسن محمود: انتشار الإسلام والثقافة العربية، ص 54.
(2) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص 392.
(3) رجب عبدالحليم: العروبة والإسلام، ص 22.
(4) توماس أرنولد، المرجع السابق، ص 392.
(5) رجب عبدالحليم: المسلمون في أفريقيا جنوب الصحراء، ص 7.
(6) حسن عبدالظاهر: الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا، ص 98.

الحروب ناشبة بين هذه الدول أو تلك الجهات، مما يدل على عمق التقدير وعظيم الاحترام لأشخاص هؤلاء الدعاة [1].

وكان الدعاة يتطوعون للدعوة وينفقون في سبيل نشرها من مالهم الخاص، لا تبعثهم حكومة، ولا تشرف عليهم إدارة، ولا تنظمهم قيادة، بل كانوا ينتشرون في أنحاء أفريقيا جنوب الصحراء يستعملون مختلف الوسائل الممكنة لإنجاح دعوتهم، وقد جاء نشاط كبير من هؤلاء الدعاة بعد أن توقفت الجيوش الإسلامية الفاتحة، فكان الداعي المسلم يتعقب الجيش ليكمل النقص في تحويل الناس إلى الإسلام، وقد ساعد نجاح هؤلاء الدعاة في نشر الإسلام في جهات عديدة من القارة الأفريقية [2].

وكان الدعاة يتفرّغون للدعوة والتعليم، فيجمعون حولهم عدداً من الأطفال والشباب، وسرعان ما يظهر امتيازهم عن رفاقهم الذين لم ينخرطوا في سلك التعليم، وهذا ما ساعد على اجتذاب أعداد أخرى جديدة [3]، وكان سبباً في احترام الشعوب والحكام الأفريقية لهم، فبجانب نشاطهم في الدعوة كانوا مفيدين للمجتمع الذي يعيشون فيه، إذ أنّهم يعلّمون الأطفال الوثنيين ويقومون بتحفيظهم القرآن، ويفقهونهم في عقائد الإسلام، وبذلك يصبح هؤلاء الأطفال نواة ينفذ من خلالها الداعي إلى الأهالي، ونواة بذرة إسلامية داخل الأسرة الوثنية [4].

إن هؤلاء الدعاة كانوا يسيرون في حياتهم على عادات وطباع الأهالي الذين يعيشون بينهم، ولا يتعالون عليهم، وإنما يخالطونهم ويتعاملون معهم في مودّة ورحمة، ويتزوجون منهم، وحينئذٍ تعمل أواصر المصاهرة والنسب أثرها، فيتحوّل النّاس إلى الإسلام من تلقاء أنفسهم [5].

لقد اعتمد انتشار الإسلام في أفريقيا، على الإقناع الذي يقوم به دعاة لا يملكون حولاً

(1) رجب عبدالحليم: العروبة والإسلام، ص 23.
(2) حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام. ص62.
(3) المرجع نفسه، ص62.
(4) رجب عبد الحليم: المسلمون في أفريقيا، ص7.
(5) رجب عبدالحليم: العروبة والإسلام، 23.

ولا قوة إلا إيمانهم العميق بدينهم، وكثيراً ما انتشر الإسلام بالتمرّد السلمي البطيء من قوم إلي قوم [1]، فالداعي المسلم يستطيع أن يمد القبائل الزنجية الغير متحضرة بكثير من الحقائق المتعلّقة بالله وبالإنسان تصل إلي القلب، بل يستطيع إلي جانب ذلك أن يمنحهم ترخيصاً بالدخول في وَحْدة اجتماعية وسياسية تخوّلهم حق الحماية والمساعدة في البلاد الإسلامية، التي تمتد من سور الصين شرقاً إلي المحيط الأطلسي غرباً [2].

إن الدعاة المسلمين كانوا يهدفون (بالدرجة الأولى) إلى دعوة الأمراء والقادة وأولي الأمر في البلاد التي تكون مسرحاً لنشاطهم، فإذا ما نجحوا في ذلك فسرعان ما يهتدى بقيّة السكان في القبيلة أو المملكة [3]، يقول ديشان: «فكان إذا ما اعتنقه الأرستقراطية – وهي هدف الدعاة الأول – تبعتها بقية القبيلة»[4].

فإذا ما استطاع الداعي إقناع شيخ القبيلة بالإسلام، فمعنى هذا أنّه ضمن دخول القبيلة كلّها إلى الإسلام، خاصة أن دخول شيخ القبيلة للإسلام، لا يفقده أيّ حق من حقوقه، بل يضفي عليه امتيازات أخرى يحافظ من خلالها على مركزه ومكانته، وقد زاد من تسهيل جهود الدعاة أن الاعتقاد بوجود الله هو أساس الشعور الديني عند كثير من عبدة الأوثان، ولهذا يمكن أن يتحّول الوثني إلى الإسلام دون عناء [5].

وإذا ما نجح الداعي المسلم على هذا النحو بما له من حظ موفور من العلم والمعرفة، فإنه لا يتوانى في أن يؤثر تأثيراً كبيراً على الأهالي الذين جاء يعيش بينهم، وبالتزاوج مع السكان الذين يرحّبون بدخوله في نطاقهم الاجتماعي الذي لا يتعارض مع ما جاء في الدين الإسلامي الحنيف، يتوطّد نفوذه ويستقر، وهكذا تنتشر بينهم معارف الإسلام شيئاً فشيئاً، وبطريقة طبيعة إلى أبعد حد [6].

---

(1) علي الشطشاط: وسائل انتشار الإسلام في أفريقيا، ص 485-486..

(2) حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص 62.

(3) عبدالسلام أبو أسعد، المرجع السابق، ص 119.

(4) ديشان، هوبير: الديانات في أفريقيا السوداء، ترجمة: أحمد صادق حمدي، دار الكتاب العربي (القاهرة، 1956م) ص 129.

(5) حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص 63.

(6) حسن محمود، المرجع السابق، ص 54.

ومما ساعد الدعاة على قيامهم بنشر الإسلام، أنه بعد تدريب بسيط بحفظ سور من القرآن الكريم، ومعرفة أصول الدين، يمكن إعداد دعاة من أهل البلاد، وبذلك أصبح من الممكن أن يوجد في القرية الواحدة أكثر من داعية، وأكثر من معلّم، كما أن سلوكهم يمثل صورة حيّة للإسلام في سموّ مبادئه، مما جعل تأثيرهم على السكان كبيراً [1].

أهم مراكز الدعوة:

من أهم مراكز الدعوة الإسلامية، التي يتخذها الدعاة أماكن تنطلق منها الدعوة إلى الإسلام المسجد والرّباط والزاوية، فالمسجد: لغة اسم لمكان السجود أما شرعاً فهو كل موضع من الأرض [2]، ويعد المسجد من معاهد الثقافة الأولى لدراسة العلوم الإسلامية، واللغة العربية ولكثير من العلوم العقلية التي تنوعت، وتطورت، إبان عصور الحضارة الإسلامية [3]. وقد اتخذ الدعاة المسجد مكاناً للوعظ والإرشاد، ومنتدىً للاستفسار عن كثير من المسائل الدينية وإيضاحها على أيدي هؤلاء الدعاة، وقبل هذا وذاك، فإنه مكان للعبادة وإقامة الشعائر الدينية التي كان يتعلّمها الناس عملياً على أيدي الدعاة والمعلّمين [4].

أما الرباط: لغة ما ربط به والجمع رُبط، والرباط والمرابطة: ملازمة ثغر العدو، وأصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيله، ثم صار لزوم الثغر رباطاً وربّما سميت الخيل رباطاً [5].

أما المعنى العام لهذه الكلمة فهو المكان الذي يرابط فيه جنود المسلمين للترصّد للعدو، وللدفاع عن الحدود [6]، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُواْ اصْبِرواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللهَّ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (75) ﴾ [7].

(1) رجب عبدالحليم: العروبة والإسلام، ص 27.

(2) الزركشي، محمد بن عبدالله: إعلام الساجد بأحكام المساجد، تحقيق: أبو الوفاء مصطفى المراغي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (القاهرة، 1383هـ/ 1963م) ص 26.

(3) معروف، ناجي: أصالة الحضارة العربية، دار الثقافة (بيروت، 1395هـ/ 1975م) ص 469.

(4) علي الشطشاط: وسائل انتشار الإسلام، ص 486.

(5) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر (بيروت، 1376هـ/ 1956م) 2/ 560.

(6) علي، سعيد إسماعيل، معاهد التربية الإسلامية، دار الفكر العربي (القاهرة، 1406، 1986م) ص 595.

(7) سورة آل عمران: الآية (75).

وأخذ المسلمون يبنون مواقع لهم على الحدود البريّة الفاصلة بينهم وبين العدو، وعادة ما يكون هذا البناء من طابق أو طابقين [1]، ثم تطوّر هذا المكان ليصبح شاملاً لنواحي أخرى غير الجانب الدفاعي، حيث غدا الرباط يطلق على المكان الذي يرابط فيه الصوفيون والعلماء للعبادة والانقطاع إلى الله تعالى، ونذر النفس لتعليم الدّين الإسلامي واللغة العربية، وهكذا أصبحت الرباطات تؤدّي خدمات دينية وثقافية وتعليمية، كالوعظ والإقراء والإفتاء، ومنح الإجازات العلمية، وتصنيف الكتب، إلى جانب دورها العسكري [2].

وفي معظم الأربطة كانت توجد مكتبة عامرة بالكتب والمصنّفات في شتى مناحي العلوم، وبالأخص في الجانب الديني، حيث أن القائمين عليها أنشأوا فيها خزائن الكتب، وعيّنوا لها الخزان، وأوقفوا عليها الأوقاف، وكلّفوا عليها من يقوم بصيانتها وترتيبها ومناولتها، وكانت هذه المكتبات مفتوحة لكل من يرغب في ارتيادها، حيث كان من أبرز روّادها المتصوفون المرابطون بالرباط، وكان يرتادها الكثير من الزهّاد والطلاب المسافرين في طلب العلم [3].

وكانت المكتبات الموجودة بالرباطات، ذات رفوف مبنية داخل جدار الحجرة، على هيئة تجاويف منتظمة، وداخل هذه التجاويف توضع الكتب الأمهات والكتب المنسوخة عنها، كما يوجد بوسط الغرفة مصاطب أو مقاعد حجرية يتم الجلوس عليها أثناء القراءة [4].

ونتيجة لهذه الحركة العلمية التي كانت تشهدها الربط، ظهرت الكثير من التآليف والمصنّفات المهمّة، حيث انقطع العديد من المرابطين بالثغر إلى المطالعة والدرس، ومنهم على سبيل المثال أبوبكر الحازمي، يقول المقريزي: «فكان أبوبكر الحازمي يقيم في رباط البديع، وكان يدخل بيته بالرباط كل ليلة يطالع ويكتب إلى الفجر، وقد صنّف الحازمي في ذلك الرباط كتاب الناسخ والمنسوخ في الحديث النبوي الشريف، وكتاب عجالة المبتدئ في

(1) ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار صادر(بيروت، 1390هـ/ 1960م) 10/ 100.

(2) ناجي معروف، المرجع السابق، ص 464.

(3) أمين، حسن: تاريخ العراق في العصر السلجوقي، المكتبة الأهلية (بغداد، 1385هـ/ 1965م) ص 240.

(4) سعيد علي، المرجع السابق، ص 596.

الأنساب، وكتاب المؤتلف والمختلف في الأنساب أيضاً، وكان زاهداً ورعاً ولا يعرف إلاّ الخلوة والتصنيف وبث العلم»[1].

وصارت أفريقيا الشمالية مربعاً كبيراً يحيط به إطار من الأربطة ضلعه الغربي من سبتة إلى بنزرت، ويحتوي على مئات الأربطة، وضلعه الجنوبي من مشارف الإسكندرية إلى بنزرت، وهذا الإطار يحتضن في كل رقعة منه رباطاً في قمة جبل أو رأس بحر أو واحة صحراء، وشكّل هذا المربّع الرباطي الكبير أكبر جهاز ثقافي منسجم موحّد عرفته بلاد المغرب، وكان كامل العدّة المعنوية والمادية، وعمل طيلة قرون على نشر الإسلام والعروبة داخل بلاد البربر وبلاد الزنوج [2].

وانتشرت الرباطات على طول ساحل أفريقيا من الإسكندرية حتى سبته، ومن سبته إلى السنغال، ومن أهم هذه الرباطات (التي كان لها أثر هام جداً في التاريخ الإسلامي للمنطقة حتى إنه سمّيت نسبة إليه طائفة من الرجال استطاعوا تكوين دولة حكمت المغرب الأقصى وأجزاء كبيرة من المغرب الأوسط) الرباط الذي أنشأه الشيخ عبدالله بن ياسين في الحوض الأدنى من نهر السنغال، وسيأتي الحديث عن هذا الرباط ودوره في نشر الإسلام جنوب الصحراء الكبرى عند الحديث عن أهم الدعاة [3].

فالرباط إذاً لا يقل أهمّية عن المسجد في كونه مكاناً تشع منه الدعوة إلى الإسلام، ولعبت هذه المراكز الدينية والحربية دوراً مهماً وبارزاً في نشر العقيدة الإسلامية، والذود عن ديار المسلمين [4].

أما الزوايا: فإن كلمة زاوية في اللغة تعني (الركن) وفيما يخص البناء والمعمار، فإنها تعني ركن المبنى أو طرفه القصي[5]، ويرى البعض أنّ كلمة زاوية مشتقّة من الفعل إنزوى، بمعنى

(1) المقريزي: الخطط، 2/ 425.

(2) سعيد علي، المرجع السابق، ص 597.

(3) علي الشطشاط: وسائل انتشار الإسلام، ص 487.

(4) المرجع نفسه، ص 487.

(5) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل (بيروت، 1416هـ/ 1996م) ط14، 4/ 445.

نأى بنفسه وابتعد عن غيره من الناس ليتفرّغ لعمل ما، باعتبار أن مرتاد الزاوية متفرّغ للعبادة والتعلّم [1].

ثم أطلق هذا الاسم على المسجد الصغير أو المصلى، وبعد ذلك أضاف الصوفيون هذا اللفظ إلى مصطلحاتهم وعنوا به الخلوة، وهي المكان الذي يختلون فيه للعبادة والتأمل، وبمرور الأيام تطوّر المصطلح ليعني مؤسسة أو معهداً يُحفّظ فيه القرآن، وتُلقى فيه الدروس الدينية واللغوية، وتقام فيه الأذكار، وأصبح بمثابة ملتقى للصوفيين [2].

والزاوية من حيث طبيعتها تنقسم إلى أنواع منها: الزاوية البسيطة وهي التي لم تبنَ على ضريح ولي، إنما تنسب إلى أحد الأولياء أو إلى طريقة صوفية، وتتكون الزاوية البسيطة من مجموعة أبنية متلازمة مثل: بيت الطلبة، وغرفة التدريس، والمكتبة، والمصلّى، وباقي المرافق، ومثل هذه الزوايا تتحوّل أحياناً إلى سوق إسبوعي، ثم قد تنمو حتى يصل حجمها إلى قرية صغيرة، وتكون الأراضي المحيطة بالزاوية موقوف عليها، وتوقَف عليها الكثير من الأموال والمواشي التي تستخدم في الإنفاق على طلبة العلم [3].

أما الزاوية الثانية: هي الزاوية ذات الولي، وتكون قد أنشئت حول ضريح ولي، أو مات بها رجل صالح، وهذه تكتسب عادة سمعة عظيمة ومن أجل ذلك يكثر زوّارها، وتتزايد إيراداتها، وسرعان ما تتحوّل إلى مركز عمراني كبير [4].

وقد طوّرت في المغرب هذه الزوايا إلى مدارس وكليّات، وذلك في زمن ملوك بني مرين خلال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، ليسهموا في الحركة العلمية بجانب جامعة القرويين بفاس وغيرها [5].

وقامت الزوايا بدور كبير في الحث على طلب العلم، حيث كانت تدور فيها حلقات

(1) الجاوي، طه: الحياة الأدبية في ليبيا، معهد الدراسات العربية (القاهرة، 1382هـ/ 1962م) ص55.

(2) خشيم، علي فهمي: أحمد زروق والزروقية، دار مكتبة الفكر (طرابلس، 1395هـ/ 1975م) ص 51.

(3) الكعّاك، عثمان: مراكز الثقافة في المغرب، معهد الدراسات العربية (القاهرة، بدون تاريخ) ص 53.

(4) عثمان الكعاك، المرجع السابق، ص 54.

(5) علي الشطشاط، المرجع السابق، ص 487.

علمية لدراسة العلوم الشرعية واللغوية، وكانت متسعاً للمناقشات الحرّة بين العلماء [1].

لقد كانت الزاوية منارة للعلم ومدرسة لتربية أبناء المسلمين، تحثّهم على جهاد النفس، وعدم الركون إلى الدنيا، وملازمة الخلوة مع النفس ومحاسبتها، وترك الملّذات والشهوات، والمداومة على ذكر الله سبحانه وتعالى، فكان لهذا أن أصبحت معاهد علمية، خرج من أروقتها أفاضل العلماء والدعاة المسلمين [2].

إن المسجد والرباط والزاوية من أهم مراكز الدعوة الإسلامية التي كان يتخذها الدعاة أماكن ينطلقون منها لنشر الإسلام والدعوة الإسلامية، ومكاناً للوعظ والإرشاد، ومنتدى للاستفسار عن كثير من الأمور الدينية [3].

أشهر الدعاة المسلمين ودورهم في نشر الإسلام جنوب الصحراء الكبرى:

إن الاهتمام الأول للدعاة كان منصبّاً علي الدعوة للّدين الحنيف، حيث قاموا بتثقيف وتعليم الناس بأمور دينهم ودنياهم، وشرح ما يستوجب شرحه لهم، وأنشأ بعضهم المدارس والمساجد، وكثيراً ما كانوا يختارون الطلاب المميّزين النجباء، لإرسالهم إلي المعاهد الإسلامية الشهيرة في المشرق العربي أو الشمال الأفريقي، لكي يتتلمذوا علي أيدي علماء مكة والأزهر والقيروان والزيتونة وطرابلس وفاس ومكناس وغيرها من المراكز والمؤسسات الإسلامية الشهيرة، ويعودوا قادة للفكر في هذه البقاع، حيث يجدون تكريما باعتبارهم رجال علم وفقة في الدين والشريعة الإسلامية [4].

وهكذا توالت أجيال الدعاة جيلاً بعد جيل، يدرسون ويتعلمون في أهم المراكز العلمية الإسلامية، ثم يعودون إلي قبائلهم ونواحيهم فيتولّون وظائف القضاء والتعليم بل القيادة

(1) الخولي، عبدالبديع: الفكر التربوي والمؤسسات التعليمية بمصر في دولة المماليك البرجية (القاهرة، 1405هـ/ 1985م) ص 183.

(2) إسماعيل، محمد علي: دُور العلم في المشرق الإسلامي من القرن الرابع إلى القرن السابع الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، نوقشت بتاريخ 2005م بجامعة قاريونس (بنغازي، 2005م) ص 49.

(3) علي الشطشاط: وسائل انتشار الإسلام، ص 486.

(4) عطية مخزوم: دراسات في تاريخ شرق أفريقيا، ص 105.

أيضاً [1]، ومن أشهر هؤلاء الإمام فخرالدين عثمان علي الزيلعي، شارح كتاب (الكنز) والمتوفى في مصر سنة 743هـ/ 1342م، حيث تعلّم في الأزهر وحاور وبرز في ميدان العلم، والمحدّث الزيلعي جمال الدين عبد الله بن يوسف الحنفي صاحب كتاب «نصر الرّاية لأحاديث الهداية» المتوفي سنة 762هـ/ 1361م والعارف بالله الشيخ علي الجبرتي الذي أعتقد السلطان قايتباي من ولايته وصلاحه وغيرهم كثيرون[2].

ومن أهم الدعاة الذين نشروا الإسلام جنوب الصحراء الكبرى، الدعاة المسلمون الذين عملوا في مناجم الذهب والأحجار الكريمة ببلاد البجة، حيث كان بداية إسلام البجة على أيد هؤلاء المسلمين، وفي أعقاب عام (216هـ/ 831 م) يمكن القول باعتناق البجة الإسلام، وشيّدت المساجد الصغيرة في «هاجر» عاصمة (الناقس) وفي صنجات وهما من مسالك البجة [3].

وفي القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، رحل رجل إسمه الشيخ أبادير إلى مدينة هرر بالحبشة، ونشر الإسلام بين أهلها، ومنذ ذلك الحين أصبحت هذا المدينة مركزاً لنشر الإسلام والدعوة الإسلامية [4].

والشيخ عبدالله بن ياسين الجزولي (م: سنة451 هـ/ 1059م) الذي نشر الإسلام بين البربر في الصحراء، والتكرور في السنغال والسوننك في غانة والذي قامت على يديه دولة المرابطين، وهناك داعية آخر قام بنشاط كبير في حوض نهر النيجر الأعلى وهو أبو القاسم علي بن يخلف، الذي أسلم على يديه ملك مالي، والذي اتخذ لقب المسلماني (أي الذي أسلم) بعد إسلامه في القرن الحادي عشر للميلاد، وإذا اتجهنا شرقاً إلي بلاد حوض بحيرة تشاد، حيث دولة الكانم والبرنو نجد داعية عظيما هو الشيخ محمد ابن ماني الذي أسلم على يديه ملوك هذه البلاد في القرن الحادي عشر للميلاد[5]، وكان هذا الداعية معمراً فقد عاش 120 سنة، وعاصر خمسة من مايات برنو، أولهم: الماي (بولو) الذي كان يحكم حوالي عام 1020م،

(1) حسن عبدالظاهر: الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا، ص 86.

(2) رجب عبد الحليم: العروبة والإسلام، ص 25.

(3) عبد الرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا، ص39.

(4) المرجع نفسه، ص 39.

(5) رجب عبد الحليم: المسلمون في أفريقيا، ص11.

وآخرهم الملك (أُمو)، وقرأ القرآن على ملوك برنو وبمساعدة الماي (أوم) قام بنشر الإسلام وتوفّي الماي (أوم) في مصر حين كان في طريقه إلى الحج، وازداد عدد الداخلين في الإسلام بما لمسه هؤلاء من تمسّك المايات بالإسلام والدعاية له بشتّى الوسائل [1]، وعمل مايات برنو علي استبدال ألقابهم بأسماء إسلامية، لأنهم شعروا بالخجل من الأسماء والألقاب الوثنية ومن هذه الأسماء: جيل أوكل صار عبد الجليل، ودونمة أصبح محمد أو إدريس، وبيري استبدل باسم عثمان، وكاد أو خاط صار عبد القادر، ودارمان استبدل بإسم عبدالرحمن وبيكو صار أبوبكر أو بكر[2]، يقول القلقشندي عنهم: «والعدل قائم في بلادهم، ويتمذهبون بمذهب الإمام مالك (رضي الله عنه) وهم يابسون في الدين»[3].

ويذكر المقريزي عن رحيل الشيخ أبي عبد الله محمد إلي الحبشة و الزيلع في عام (698هـ/ 1298م) لدعوة أهلها إلي الإسلام، فوّحد صفوفهم وتزعّمهم لدفع تعدّي الأحباش عليهم [4].

وقام علماء مالي وفقهاؤها المسلمون بالدعوة للإسلام، واشتهرت في ذلك بعض القبائل، حيث اشتهرت بحماسها لنشر الإسلام، ومن أهمها فرعان من الماندجو هما: الديولا والسوننك، حتى إن كلمة سوننك صارت مرادفة لكلمة داعية، وإلى جهود مالي (دولة وشعباً) يرجع الفضل في نشر الإسلام في بلاد الهوسا منذ حوالي القرن الثالث عشر الميلادي، ففي دولة كاتسنا من بلاد الهوسا، كان إسلام (الساركن محمد كورا) الذي ولي عرش كاتسنا عام 1300م على أيدي علماء مالي، وبعهد هذا الساركن يبدأ حكم الملوك المسلمين في كاتسنا، وفي عهد الساركن ياجي بن تسامبا (750 -787هـ/ 1349-1385م) في كانو أهم دول الهوسا، وفد على بلاد الهوسا عدد من العلماء المسلمين من مالي على رأسهم عبدالرحمن زيت، فرحّب بهم وأكرمهم وأمروه بالمحافظة على أوقات الصلاة، واتخذ منهم إماماً له ومؤذنا ومشرفاً على الذبائح، وعهد بالقضاء لعبدالرحمن زيت [5].

(1) إبراهيم طرخان: إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص 68 - 69.

(2) المرجع نفسه، ص 86.

(3) القلقشندي: صبح الأعشي، 5/ 281.

(4) المقريزي: السلوك، 1/ 116.

(5) حسن عبد الظاهر، المرجع السابق، ص130-131.

وبفضل علماء مالي استقامت كانو وانتصر ملكها علي الوثنيين ويقال: إن علماء مالي حاربوا معه الوثنين، واستجاب الله دعاءهم، وهؤلاء العلماء الذين كانوا يقدمون من مالي إلى بلاد الهوسا كانوا يحملون معهم الكتب الإسلامية في شتى المعارف [1].

كذلك دخل الإسلام كثيراً من النوبيين وأهالي السودان النيلي ودارفور علي يد دعاة وفدوا من مصر واليمن والحجاز من أمثال الشيخ محمد القناوي الأزهري من مصر، وتلقف منهم الدعوة وأذاعها سودانيون من أمثال الشيخ محمود العركى [2]، والشيخ صغيرون محمد بن سرحان العدوى [3]، ومن اليمن عبر الشيخ غلام الله بن عائذ اليمني البحر الأحمر واستقر في دنقلة حيث شيّد المساجد، وقام بتحفيظ القرآن وتفسيره، وتلقين العلوم الإسلامية، والمعروف أن استقرار غلام الله في دنقلة كان في النصف الثاني من القرن الرابع عشر [4].

وتمكّن أحد الدعاة المسلمين وهو(الشيخ إبراهيم أبو زرباي من التوغّل نحو الهضبة الحبشية حوالي سنة 834هـ/ 1430م) من إقناع الكثير من الناس باعتناق الإسلام، وتشرّب مبادئه، ومات في منطقة هرر، ولا يزال ضريحه موضع كل تبجيل وتوقير [5].

وفي منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، وفد داع يقال له أبو دنانة قال انه من سلالة النبي (ﷺ) وكان متزوجاً من ابنة العالم الجزولي الذي قام بالدعوة إلى طريقته في المغرب، وكانت دعوة أبو دنانة في السودان حوالي عام 1445م [6].

وفي القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر الميلادي، وفد على بلاد الصومال والحبشة

(1) حسن عبد الظاهر، المرجع السابق، ص131.

(2) محمود العركي: تلقى علومه في مصر وتتلمذ لناصر الدين اللقائي وأخيه شمس الدين، ولّما عاد إلي وطنه أسس سبع عشرة مدرسة لتفقيه الناس، وشيّد رباطاً لطريقته، ومنذ ذلك الحين أصحبت منطقة النيل الأبيض ملتقى الدراسات الإسلامية. مسعد، مصطفى: الإسلام والنوبة في العصور الوسطى (القاهرة، 1380هـ/ 1960م) ص 212.

(3) رجب عبد الحليم: المسلمون في أفريقيا، ص 12.

(4) عبد الرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا، ص 22.

(5) عبد المولى الحرير: الإسلام وأثره على التطورات السياسية في أفريقيا، ص 109.

(6) عبد الرحمن زكي، المرجع السابق، ص 22.

جماعة من حضرموت، مكوّنة من أربعة وأربعين داعياً عربياً، نزلوا في ميناء بربرة الصومالي في خليج بربرة، ومنها انتشروا في بلاد الصومال يدعون الناس إلى الإسلام [1].

ونجد داعية إسلاميا كبيراً هو الشيخ محمد عبد الكريم المغيلي (م سنة: 909هـ/ 1503م) الذي نشر الإسلام في بلاد الهوسا [2]. هؤلاء قليل من كثير من الدعاة المسلمين الذين وهبوا حياتهم للإسلام ونشره بين الشعوب والقبائل الأفريقية، وسأتكلم عن أشهر الدعاة الذين كان لهم دور كبير في نشر الإسلام، وقيادة الدعوة، والنهضة الإسلامية جنوب الصحراء، وهم الشيخ عبدالله بن ياسين ودوره في نشر الإسلام بين بربر الصحراء، والتكرور والسوننك في السنغال وغانة، والشيخ محمد بن عبدالكريم المغيلي في بلاد الهوسا، والشيخ أحمد الجراني وجهاده ضد الحبشة.

1- الشيخ عبدالله بن ياسين الجزولي:

هو عبدالله بن ياسين بن مكوك بن سير الجزولي من أحواز أودغست في صحراء غانة، كان فقيهاً عالماً من أئمة الفقه في المغرب، مؤهلاً بالعلم والخلق والغيرة على الدين، سعى في طلب العلم منذ صغره حتى عدّ من أذكياء الطلاّب، درس على أستاذه وشيخه واجاج بن زلّوا اللمطي، فقيه المغرب الأقصى، ورحل إلى الأندلس طالباً للعلم حتى بلغ درجة التدريس، جمع إلى فقه المغرب علم الأندلس، وهو وإن لم يدّون علمه في كتاب، فقد دوّنه في عقولٍ ونفوسٍ تلقّته وترجمته حياةً علميةً [3].

تمتّع ابن ياسين بقوة النفس والحزم وكان ذا رأي وخبرة وتدبير حسن وملكات واعية، وقدرة على الحركة والبناء والتأثير في التلاميذ والجماهير معاً، وتطويعهم للدين والالتزام بآدابه، حتى لقّب بإمام أهل الحق، واشتهر من تلاميذه يوسف بن تاشفين وعلي بن تاشفين وغيرهما، ممن كانوا ملوكاً أشبه بالأئمة بفضل التقاليد التي خلقها فيهم [4].

أما بداية دعوته وحركته الدينية، فتعود إلى سنة (427هـ/ 1035م) عندما خرج يحيى بن

(1) رجب عبد الحليم: العروبة والإسلام، ص 27.
(2) المرجع نفسه، ص 28.
(3) حسن عبد الظاهر، المرجع السابق، ص 104.
(4) المرجع نفسه، ص 104 – 105.

إبراهيم الجدالي (شيخ قبيلة صنهاجة البربرية المنتشرة في المغرب الأقصى والأوسط والصحاري الواقعة جنوبهما)، متجهاً إلى مكة لأداء فريضة الحج، واجتاز في إيّابه على مدينة القيروان، فحضر مجلس الفقيه المدّرس أبي عمران الفاسي، فسأله عن قبيلته ووطنه، فذكر له: أنه من الصحراء من قبيلة جدالة، فقال له: «ما مذهبكم ؟ فقال له، ما لنا علم من العلوم، ولا مذهب من المذاهب، لأننا في الصحراء منقطعين لا يصل إلينا إلا بعض التجار الجهّال حرفتهم الاشتغال بالبيع والشراء ولا علم عندهم»[1].

فأرسل معه الشيخ أبو عمران الفاسي كتاباً إلى فقيهٍ في سجلماسة من قبائل الجنوب يدعى واجّاج بن زلّوا اللمطي، ليرشّح له فقيهاً يصحبه، وكان هذا المرشّح تلميذه عبدالله بن ياسين، وعادت رحلة الحج إلى ديار الملثمين[2] في مركز لمتونة (أزكي) بالفقيه المصلح، والأمير الصالح معاً (حوالي سنة 430هـ/ 1038م)، ليقوم الفقيه بتعليم أهالي الصحراء أمور دينهم، وقد بالغت قبائل لمتونة في الاحتفاء بالشيخ عبد الله بن ياسين لفترة من الزمن [3].

اتّجه ابن ياسين أولاً إلى تعليم طلاّبه بالعربية، وقام بالتعليم كذلك في الصحراء أثناء إرشاده، ولم يكن تعليمه مجرّد سرد مسائل ونقلها إلى أذهان مستمعيه، بل مزجها بروح التوجّه إلى إصلاح المجتمع من حوله، فنشطت بذلك روح الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، حتى امتد أثره إلى الحياة الخاصة والعامة، وكان المجتمع آنذاك تسود فيه بعض عادات وانحرافات تبعد به عن الإسلام، فأصلح من فقه الناس وبصّرهم بشؤون دينهم، وغيّر كثيراً من عاداتهم، وحارب أهل الانحراف من كل طبقة في مجتمعه [4].

---

(1) ابن خلدون: العبر، 6/ 373.

(2) عرفت هذه القبائل باسم الملثمين اشتقاقاً من اللثام الذي كانوا يرتدونه، وهو عبارة عن قطعة من قماش طويلة يلف بها الرأس وتغطي الوجه حتى لا يظهر منه سوى العينين، وتوجد العديد من الروايات التي تبرّر سبب ارتدائهم للثام، إلا أن طبيعة الصحراء ربما تكون هي العامل الأول في دفعهم لارتداء اللثام دفعاً لقيض الشمس، والزوابع الرملية. ملحس، ثريا عبدالفتاح: المرابطون اللمتونيون، الشركة العامة للكتاب (بيروت، 1408هـ/ 1988م) ص 8.

(3) ابن عذارى، أبو العباس أحمد بن محمد: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب (تونس، 1403هـ/ 1983م) 4/ 8.

(4) حسن عبد الظاهر، المرجع السابق، ص 105.

لكن السياسة الحازمة التي اتبعها ابن ياسين، وإصراره على تنفيذ إصلاحاته بشدّة، جعلت كثيراً من النّاس ينفضّون من حوله وينشقّون عنه، خصوصاً من أبناء قبيلة جدالة، وكان لوجود يحيى بن إبراهيم، دور هام في استجابة الناس لدعوة بن ياسين، لكن بمجرّد وفاته ثار الناس على ابن ياسين وظهر رجل يدعى (الجوهر بن سيكوم) الذي حرم بن ياسين من حقّ إصدار الفتاوى الشرعية، يسانده في ذلك أهل الانحراف وبعض العلماء الذين أصابتهم الغيرة من ابن ياسين [1].

فخرج ابن ياسين قاصداً بلاد السودان حيث يمكنه أن يؤدي رسالته بين أقوام أقل ضرّواة من اللمتونيين والصناهجة، وأبى رئيس صنهاجة إلاّ أن يرافقه، ورحل معهما أبوبكر بن عمر شقيق يحيى بن عمر، فنأوا عن الناس في ربوة يحيط بها الماء من جهاتها فدخلوا في غياضها بحجة الانقطاع للعبادة [2].

واستقر في جزيرة نائية في الحوض الأدنى من نهر السنغال، وموقع هذا الرباط يدل على المهمة التي أُعدَّ لها، فهو يقع على ثخوم بلاد الإسلام مع مملكة غانا الوثنية [3]، لذلك كان هذا الرباط مهدداً دائماً، ولابد للجماعة المقيمة فيه من الجهاد، وبدأت المرابطة في الجزيرة (سنة 433هـ/ 1040م) بسبعة أشخاص عاشوا حياة الزهد والتصوّف والمرابطة، ومن هنا اتخذ اتباعه لقب المرابطين، وهو لقب أطلقه الشيخ عبدالله على من لزم رباطه، واتخذوا من القرآن الكريم دستوراً لهم [4]. وبمرور الوقت بدأ عددهم يكثر حتى اجتمع على ابن ياسين من تلاميذه نحو ألف رجل من أشراف صنهاجة، فسمّاهم المرابطين [5]، وكان بن ياسين ينتقي من الرجال أطهرهم نفساً وأوفرهم قوّة، وأقدرهم على تحمّل المشاق، وكان يتولّى تثقيفهم، ويعلّمهم قراءة القرآن وتفسيره، والسنة النبوية وأحكام الدين [6].

(1) شوقي الجمل، وعبد الله عبد الرازق: تاريخ غرب أفريقيا الحديث والمعاصر، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات (القاهرة، 1418هـ/ 1998م) ص 12.

(2) السيد سالم: المغرب الكبير «العصر الإسلامي»، دار النهضة (بيروت، 1401هـ/ 1981م) 2/ 693.

(3) شوقي الجمل: تاريخ غرب أفريقيا، ص 11.

(4) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 9/ 620.

(5) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص 80.

(6) ابن عذارى، المصدر السابق، 4/ 16.

واستحدث أهل الرباط نظاماً من التربية الجندية الخشنة، يحمل في طيّاته عنصر الدفاع عن النفس، وتكوين قوة مجاهدة للعمل في محيط الدعوة وسبل إصلاحها، ولتحقيق هذه التربية، كان أسلوب العمل والحياة لبلوغها يسير على نمط فريد ودقيق، فكان القبول فيه يتم بعد اختيار وامتحان للتأكد من استعداد الراغب لقبول نظامه، وتقوم الحياة فيه على الاكتفاء الذاتي في ضرورات الحياة، مع التعاون التام لتحقيق هذا الاكتفاء في إطار من الحياة الإسلامية المثالية، وعلى أساس من التقشّف والعبادة والتعليم، والالتزام بالتعاليم والحزم الصارم في أدائها، فكانت الصلوات تؤدى في جماعة، ومن فاتته ركعة ضرب خمساً ومن تخلّف ضرب عشرين، وعدّوا رفع الصوت في المسجد مخالفة، وأُلزموا بقضاء الفوائت السابقة [1].

هذا داخل الرباط، أما خارج الرباط فكانوا يبعثون منهم بعوثاً إلى القبائل لترغيب الناس في دعوتهم، وأيضاً لجمع الزكاة ممّن رغب في أدائها طوعاً، حيث قال بن ياسين لتلاميذه: «اخرجوا على بركة الله، وأنذروا قومكم، وخوّفوهم عقاب الله، وأبلغوهم حجّته، فإن تابوا ورجعوا إلى الحق وأقلعوا عمّا هم عليه، فخلّوا سبيلهم، وإن أبوا ذلك وتمادوا في غيّهم ولجّوا في طغيانهم، استعنّا بالله تعالى عليهم، وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا»[2].

لقد استطاع عبد الله ابن ياسين إعداد جيل جديد قادر على حمل الدعوة، فشرع يعدّهم للحرب، ويذكي في نفوسهم مبادئ الدين، وخلق فيهم وعياً جديداً، وكوّن منهم طبقة فدائية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقضاء على البدع وكل المفاسد الدنيويّة، فزاد عدد أتباعه وكثر الناس من حوله، وأحسّ بهذه الروح الجديدة القادرة على التصدّي للمسئولية الشاقة [3]، والمتأهبة للتضحية والدفاع عن العقيدة وصد غارات الأعداء، ولما استوثق من ثبات مركزه وتوحيد صفوف قبائل الملثمين، بدأ غزواته لإخضاع قبائل المغرب وإماراته [4]، فخرجت حركة المرابطين بعد انكماشها لفترة، في عام 1042م، وبدأ عبدالله تحت قيادة يحيى بن عمر يبحث عن ضم قبائل صنهاجة في الصحراء الجنوبية لحركته، وفعلاً انضمت

(1) حسن عبدالظاهر، المرجع السابق، ص 106 – 107.

(2) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 16.

(3) شوقي الجمل: تاريخ غرب أفريقيا، ص 11.

(4) عبدالرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا، ص 8.

إليه العناصر الرئيسية من لمتونة وجدالة ومسوفة، وقدم إليه المريدون من كل صوب [1].

والذي نحن بصدده هو دور عبد الله ابن ياسين في الدعوة الإسلامية جنوب الصحراء، لذلك سأتكلم عن دور حركة ابن ياسين المتمثلة في المرابطين ودورهم في نشر الإسلام أو إذا صح التعبير دعم الدعوة الإسلامية في تلك الجهات، لأن الإسلام كان قد انتشر على يد التجار والدعاة، كما ذكرت في موضعه سابقاً – جنوب الصحراء الكبرى، حيث إن بعض المؤرخين كما يذكر الدكتور عبدالرحمن زكي، بالغوا في وصف الجهد الذي قام به المرابطون في نشر الإسلام بين أهل السودان الغربي، وقالوا: إنه بفضلهم وحدهم تم دخول الإسلام، وفاتهم أن الإسلام تسّرب في هدوء بصحبة تجار قوافل الصحراء من الشمال إلى الجنوب، وقبل المرابطين، وكان هؤلاء التجار يُمنحون كامل الحرّية في مزاولة تجارتهم، وتأدية فروضهم وواجباتهم الدينية، بل والدعوة إلى دينهم في حرّية مطلقة، ومما يؤيّد هذا، وجود مدن إسلامية، وأحياء يسكنها المسلمون في المدن الوثنية كما أشار العديد من المؤرخين ومن بينهم البكري، والواقع أن المرابطين عملوا على الإسراع في مهمّة تحويل الزنوج إلى الإسلام بدلاً من سيرها ببطء تدريجي [2].

جهاد المرابطين في بلاد السودان الغربي:

أسس ابن ياسين حركته في الطرف الغربي من الصحراء الكبرى معتمداً على الدور الفاعل لثلاث قبائل هي: جدالة ولمتونة ومسوفة بقيادته وقيادة إبراهيم الجدالي سنة (427هـ/ 1035م) وكان هدفهم نشر الإسلام بالدرجة الأولى، ومن ثم وجّه حركة الجهاد إلى بلاد السودان الغربي [3]، الذي كان تحت سيطرة إمبراطورية غانة الوثنية، ويذكر ياقوت أن غانة تقع جنوب بلاد المغرب حيث يقول: «وغانة كلمة أعجمية لا أعرف لها مشاركاً من العربية، وهي مدينة كبيرة، في جنوبي بلاد المغرب متّصلة ببلاد السودان»[4] فهي تقع إلى الجنوب من منازل القبائل المغربية [5].

(1) شوقي الجمل، المرجع السابق، ص 12.
(2) عبد الرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا، ص 10 – 11.
(3) السلاوي: الاستقصا، 2/ 5.
(4) ياقوت الحموي: معجم البلدان، 3/ 770.
(5) شوقي الجمل: المرجع السابق، ص 65.

وكانت جهة السودان هدفاً أساسيّاً مقدّماً على غيره في نظر بن ياسين ومرابطيه، ونشبت الحرب بين الملثمين المرابطين، وبين ممالك السودان المتمثلة في غانة، وانتصر المرابطون في أوّل ميادينها، وحرّروا مدينة (أودغست) من سلطان أهل الوثنية، وضمّوها إليهم سنة (447هـ/ 1055م) [1]، وكان لذلك صداه البعيد، الذي رفع من شأن المرابطين وأعطاهم في نظر المجتمع صورة القوّة القادرة على حماية وطن الإسلام، فازداد الناس تجمّعاً حولهم، ودخلت بلاد التكرور في حلفهم، وفرضت السلم على غانة نفسها، وأدّى هذا الكسب إلى جذب الناس إليهم، وصارا المجال مهيّأً للقيام بتوحيد صفوف الجبهة الإسلامية في تلك المنطقة بتجميع قبائل البربر تحت راية واحدة، وتوجيه قوّة عصبيّتهم لنصرة الإسلام [2].

ثم فتح المرابطون درعة وأغمات، وفي خضم هذه الانتصارات استشهد يحيى بن عمر في إحدى المعارك ضدّ إحدى القبائل المتمرّدة في بلاد السودان الغربي في معركة (بتغريلة)، فعيّن ابن ياسين (سنة 448هـ/ 1056م) [3] أخاه أبوبكر بن عمر اللمتوني (م: سنة 480هـم1087م)[4] الذي سرعان ما اختار ابن عمّه يوسف بن تاشفين قائداً لمقدّمة جيشه وكان ذلك على إثر ما أظهره يوسف من ضروب الشجاعة، وإحكام التدبير في المعارك القبلية[5].

واصل بن ياسين مسيرته لتوحيد اتجاه الفكر الإسلامي في المنطقة، والقضاء على التنازع ومظاهر الابتداع والتحلّل، وخاصة قبيلة برغواطة التي كانت غارقة في البدعة منذ زمن طويل[6]، فبرغواطة هذه كما يذكر ابن أبي زرع جماعات من البربر من عدّة قبائل كانوا يسكنون ساحل تامسنا، لا دين لهم، وهم بالمجوسية اشبه، فادّعى فيهم النبوة (صالح بن طريف) على أيام هشام بن عبدالملك سنة (125هـ/ 742م)، وأصل صالح من برناط، وهو

(1) السلاوي، المصدر السابق، 2/ 5.

(2) حسن عبدالظاهر، المرجع السابق، ص 108.

(3) ابن خلدون: العبر، 6/ 183.

(4) إبراهيم طرخان: إمبراطورية غانة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر (القاهرة، 1390هـ/ 1970م) ص 52.

(5) عبدالرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا، ص 8.

(6) حسن عبدالظاهر، المرجع السابق، ص 108.

حصن من أعمال شذونة من أعمال الأندلس، وكان يقال لمن يدخل في ديانته برناطي ثم حوّلته العرب إلى برغاطي فسموا برغواطة، وهو يهودي الأصل، اشتغل بالسحر، وأخذ عن عبيد الله المعتزلي في الشرق، ثم رجع إلى المغرب وادعى النبوّة، وشرع لهم ديناً من تلقاء نفسه، وقال لهم أنا صالح المؤمنين الذي ذكره الله في القرآن، وشرع لهم صيام رجب وإفطار رمضان، وجعل الضحية في الواحد والعشرين من المحرّم، وشرع لهم في الوضوء غسل السرّة والخاصرة، وأباح لهم أن يتزوّج الرجل من النساء ما شاء، وفرض عليهم عشر صلوات خمساً في الليل وخمساً في النهار، وجاءهم بقرآن فيه ثمانون سورة منها سورة إبليس والحجل، وأمرهم ألاّ يغتسلوا من جنابة، وكان رئيسهم في سنة (451هـ/ 1059م) أبا حفص عبدالله بن أبي الأنصاري[1]، وأمام هذا الضلال والغرق في الغيّ والفجور لم يرض بن ياسين الذي أخذ على عاتقه الجهاد منذ أن خرج مع الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي، فأعلن الحرب عليهم، وبعد حروب طاحنة تمكّن المرابطون من القضاء على برغواطة، ولكن بعد أن دفعوا ثمن ذلك دم رئيسهم وقطبهم الروحي عبدالله بن ياسين إمام الحق (سنة451هـ/ 1059م)[2].

لم يُوقِف أتباع بن ياسين جهادهم بعد استشهاده، بل أعدّ أبا بكر بن عمر جيشاً كبيراً، وكان يؤازره في ذلك قبائل الفلانة الذين زحفوا معه نحو دولة غانة، وثم لهم فتح عاصمتها كومبي صالح (سنة 468هـ/ 1076م) [3] وعيّنوا عليها حاكماً مسلماً، غير أن انتصاراتهم هذه على غانة لم تعمّر طويلاً، فموت أبي بكر (عام 480هـ/ 1087م) واختلاف اتباعه فيمن يحكم بعده، وانشغالهم بأمور المغرب الأقصى، جعلت المرابطين يتخلّون عن العمل الكبير الذي قاموا به وراء الصحراء [4].

إن استشهاد ابن ياسين لم يوقف حركة التوسّع الإسلامي في غرب أفريقيا، إذ تمكّن أنصاره من دخول عاصمة مملكة غانة وأسلم عدد كبير من سكان تلك العاصمة، وأقبلت العديد من قبائل التكرور، والساراكولا على رفع راية الجهاد في وادي النيجر، ومن الظواهر

(1) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 226.

(2) إبراهيم طرخان: إمبراطورية غانة الإسلامية، ص 52.

(3) ابن خلدون، المصدر السابق، 6/ 183.

(4) إبراهيم طرخان: المرجع السابق، ص 52 – 53.

الإيجابية لحركة ابن ياسين نشوء مدينتين إسلاميتين، هما تنبكت وجني، اللّتين لعبتا دوراً رئيسيّاً في حركة التجارة وانتشار الإسلام في غرب أفريقيا، ولم ينته منتصف القرن الثالث عشر حتى عم الإسلام بلاد السنغال والنيجر، وانطوت أمامه كل مظاهر الوثنية في الطرف الغربي من القارة الأفريقية [1]. لقد فتحت تلك الدعوة لدولة الإسلام صفحات في السودان، وتمكّن من الذيوع والغلبة، فبدأ بطبقة الرؤساء والتجار، يحيط بهم طبقة من الدعاة والعلماء، ثم أخذ ينتشر بعد ذلك بين العامة، وانتهت تلك المرحلة في جبهة الداخل بأن يعتنق الإسلام بصورة نهائية بربر الصحراء من الجداليين واللمتونيين، وانتصر المذهب المالكي على مذهب الخوارج، وقامت مراكش عاصمة الإسلام في الشمال، وأقيمت تنبكت عاصمة له في أرض السودان[2].

واستمر الإسلام ينتشر عن طريق الوسائل السلمية، وكان لقبائل السوننكي في غانة الفضل الأكبر في الدعوة للإسلام وقبوله بين سكان الساحل الغربي الأفريقي، وكان لاتصالهم التجاري برجال مالي الفضل في إيصال الإسلام إلى منطقة الغابات الكثيفة عند خط الإستواء، وفي خلال خمسين سنة عقب وفاة ابن ياسين كان التجار المسلمون قد وصلوا إلى جنوب منطقة السفانة السودانية وعلى وشك اختراقهم الغابات [3].

وكرّست مالي جهودها الاقتصادية بحكم سيطرتها على تجارة الصحراء لخدمة الإسلام وتوسيع حدوده الجغرافية في أعماق القارة، فوجد الإسلام طريقه إلى شعوب السيراليون وساحل العاج وساحل الذهب، وغيرها من المناطق الأفريقية النائية [4].

ويمكن القول إن المرابطين عملوا على الإسراع في مهمّة تحويل الزنوج إلى الإسلام، وبعد سقوط غانة تسلّمت راية الإسلام دولة مالي الإسلامية التي سرعان ما أصبحت أعظم الدول الزنجية في غرب أفريقيا [5]

(1) عبد المولى الحرير: الإسلام وأثره على التطورات السياسية، ص 112 – 113.

(2) حسن عبد الظاهر، المرجع السابق، ص 110.

(3) عبد الرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا، ص 11.

(4) عبد المولى الحرير، المرجع السابق، ص 113.

(5) عبدالرحمن زكي، المرجع السابق، ص 11.

2- الإمام محمد المغيلي:

هو محمد بن عبدالكريم بن محمد المغيلي التلمساني من قبيلة مغيلة، التي تقطن نواحي تلمسان في بلاد المغرب، تربّى فترة شبابه في توات في الصحراء، وقضى شبابه في دراسة مبادئ القرآن الكريم وحفظه، وواظب على الدروس والتحصيل، حتى أصبح من العلماء الذين يشار إليهم بالبنان، ووُصف بأنه خاتم الأئمة المحققين، والعالم العلامة، والقدوة الصالح [1].

أخذ عن الإمام عبدالرحمن الثعالبي وغيره، وأخذ عنه جماعة كالعاقب الأنصمني، ومحمد عبدالجبار الفجيجي، وعمر الشيخ الكنتي وغيرهم [2].

أنكر على الحكام المسلمين خروجهم على التقاليد الإسلامية في حكم رعاياهم، وهو سبب خروجه من تلمسان إلى توات ومنها إلى بلاد السودان[3]، ولم تر بلاد السودان مثله في العلم والفضل، كانت له مكانته في حياته وآثاره قائمة بعد مماته، وكان العلامة السنّي والقدوة الصالحة الراعية، ترأس الحركة الإسلامية في بلاد السودان خاصة بلاد الهوسا وصنغي وكان له دور في نشر وتدعيم المفاهيم الإسلامية، والدعوة إليها، وتوجيه الحكام للعمل بها، و طبع المجتمع بطابع إسلامي [4].

امتاز المغيلي بالذكاء والفهم، حيث جاب أرجاء البلاد ينشر العلم ويدعو إلى الله ويجاهد بلسانه وقلمه، ويبصّر الأمة بدينها شعباً وحكاماً، كان غيوراً على الإصلاح شغوفاً بالسنة ومدافعاً عنها، ومبغضاً لأعداء الدين، فصيح اللسان جدالياً نظاراً محققاً، ألّف كثيراً من الكتب أضاءت الحياة العلمية في قلب السودان، وكان لها أثرها على الأمة في عهده وفي الأجيال من بعده، إذ كانت مدرسة تربّت عليها، ومن تآليفه: مصباح الأرواح في أصول الفلاح، مغنى النبيل في شرح مختصر خليل، وإكليل مغنى النبيل، وشرح بيوع الآجال من ابن الحاجب، ومختصر تفسير المفتاح، ومفتاح النظر في علم الحديث، وشرح جمل الخونجي،

(1) مطير غيث: الثقافة الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي، ص 267.

(2) حسن عبد الظاهر، المرجع السابق، ص 145.

(3) مطير غيث، المرجع السابق، ص 267.

(4) حسن عبد الظاهر، المرجع السابق، ص 145 – 146.

ومقدمة في المنطق، ورجز في المنطق وثلاثة شروح عليه، وتنبيه الغافلين على مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين، ومقدمة في العربية، وكتاب الفتح المبين، وشرح خطبة المختصر، والبدر المنير في علوم التفسير، ورسالة ألفها لسلطان كانو أبي عبدالله محمد بن يعقوب، وكتاب المسائل الذي ألفه لأمير المؤمنين الحاج أبي عبدالله محمد بن أبي بكر المعروف بالأسكيا ولكن كثيراً من مؤلفاته مفقود أو منسي، وتدل مؤلفاته التي كتبها للحكام في صنغي وفي بلاد الهوسا، على مدى علمه فقهياً، ومدى غيرته مُصلحاً، ومدى أثره إماماً وداعية، وكان له جهاده في توجيه المجتمع السوداني في عهده [1].

وصل الإمام المغيلي أول الأمر إلى تكدّا، واجتمع بصاحبها وأَقْرَاَ أهلها وانتفعوا به، ثم بنى مسجداً في مدينة أغادس، كما صار مستشاراً سياسياً وفقيهاً لأميرها، ثم اتجه جنوباً مخترقاً مدينتي مرادى وزندر، جنوب شرق النيجر الحالية، ووصل شمال دولة نيجيريا الحالية، حيث استقر لبعض الوقت بكل من كنووكشنه من بلاد السودان، واجتمع بصاحب كنورا فاستفاد منه، وكتب له رسالة في السلطنة يحضّه على إتباع الشرع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقرّ لهم أحكام الشرع وقواعده، ثم أقام في بلاد الهوسا، وقام بدور هام في حياتها السياسية والثقافية والاجتماعية، ثم توجّه صوب مدينة جاو عاصمة مملكة ضغي آنذاك، التي تعيش ازدهاراً في حكم ملوكها الأسكيين في بداية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي [2].

وقد أرسل إليه الأسكيا الحاج محمد العديد من الأسئلة الدينية يطلب منه الإجابة عليها، فأجابه على أسئلته في (كتاب المسائل)[3] الذي ألّفه له، ويمكن للدّارس لمحتويات هذه الأسئلة أن يرى مدى تمسّك أسكيا محمد ملك صنغي وحرصه على الاستمرار في سَيره على منهاج الحكم الإسلامي الواضح، فأجابه الإمام المغيلي، إجابة تتسم بالشجاعة وكلمة الحق، وما يتعلق بجهاد الكفّار وأنصَارهم من العلماء والعوام، وبيان الفرق بين علماء السوء، وحكم قتال المسلمين الذين لم يدخلوا تحت بيعة أحد من الأمراء، وحكم قتال المحاربين من

(1) حسن عبد الظاهر، المرجع السابق، ص 146.

(2) مطير غيث، المرجع السابق، ص 268 – 269.

(3) هذه المخطوطة حققها الدكتور الجزائري، عبد القادر زبادية، ضمن سلسلة ذخاتر المغرب العربي، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع (الجزائر، 1394هـ/ 1974م).

المسلمين ظلماً وعدواناً، وبيان ما يجب على أمراء الإسلام من إقامة شعائر الإسلام، وإصلاح البلاد، وأنّ المُلك لله تعالى وحده وأن الله رفع أسكيا على كثير من عباده لكي يصلح لهم دينهم ودنياهم، لا ليكون سيّدهم ومولاهم [1].

وذكّر المغيلي الأسكيا بأن يسأل أهل الذكر عن كل ما لا يعلم حكمه من تصرّفاته كلّها، حتى يحكم بما أنزل الله في كل ما حمله منها، ويضيف أن من أعظم الواجبات على أمراء المسلمين حفظ الدين، بعدم ترك أي شخص يتحدّث في دين الله تعالى تعليماً أو حكماً أو فتوى ما لم يكن من أهل العلم والتقوى [2].

وكان للمغيلي دور هام في نشر ودعم مفاهيم الإسلام في بلاد الهوسا، ورسائله التي وجّهها إلى أبي عبدالله محمد بن يعقوب سلطان كانو، دليل على ما كان له من بصيرة نافذة، وجرأة في مواجهة أي انحراف وباطل والتصّدي له بالإصلاح، كما كانت له مواقفه في توات حيث ملتقى التجارة وقوافل الصحراء، ومنها فتواه في موالاة الكفار وحمايتهم، وأن كلّ من يحمي يهودياً أو نصرانياً أو يحاميه على شيء من تعدّي حدود الشرعية يكفر بما ظهر عليه من الموالاة، وقد بلغ من حقد اليهود عليه أنّهم قتلوا له ابناً في توات [3]، ويظهر حقدهم عليه في كتاباتهم حديثاً حين يكتبون عن أفريقيا، وكانت فتواه لدرء المفاسد المتفشية في البلاد والتي كان لليهود دورٌ ويدٌ فيها، وفي إثارة الاضطرابات الاقتصادية في توات وغيرها من الواحات، مما اضطّر بالأسكيا الحاج محمد إلى طرد اليهود من تنبكت وإغلاقها في وجوه تجارهم ومنع شعبه من معاملاتهم [4].

لقد كان الإمام المغيلي من الدعاة والعلماء المحافظين على سلامة العقيدة والمجتمع، وكان له تأثير كبير حتى في المناطق الوثنية، وكان اهتمامه موجهاً للحكّام وتوجيههم وتطبيعهم بالطابع الإسلامي، ودرء الكفر والمفاسد، وتوفي الإمام المغيلي في توات عن عمر

(1) فاي علي: أسكيا الحاج محمد وإحياء دولة السنغاي الإسلامية، ص 98 – 100.
(2) المرجع السابق، ص 101.
(3) حسن عبدالظاهر، المرجع السابق، ص 148.
(4) بوفيل: تجارة الذهب، ص 142 – 143.

يناهز المائة سنة (909هـ/ 1503م) [1] بعد أن نشر ودعا للإسلام في بلاد الهوسا صنغي، ثم أتى بعده بعدة قرون داعية كبير من شعب الفولاني، هو الشيخ عثمان دان فوديو الذي أتم حركة نشر الإسلام في هذه البلاد، وخاصة نيجيريا والكاميرون [2].

3- الإمام أحمد الجراني:

هو الإمام أحمد بن إبراهيم الملقب (بالأشول أو الأعسر) ويطلق عليه (أحمد قران Gran) وهو الذي قاد المسلمين، وبسط نفوذهم في الحبشة (1506-1543م) [3].

تلّقى مبادئ العلوم الإسلامية على يد شيوخ هرر وعلمائها، ثم ارتحل في صباه إلى زيلع مع والدته وأخواله، وفيها سمع الكثير من أحوال المسلمين خارج وداخل الصومال، ودرس كتب السيرة والتفسير، وحفظ القرآن وكثيراً من أحاديث الرسول (ﷺ) ثم عاد إلى هرر التي كانت تعتبر مركزاً هاماً من مراكز الثقافة الإسلامية فدرس مختلف العلوم حتى صار شيخاً عالماً رغم حداثة سنّه، وقد نشأ على حب الخير والحق، وعلى التمسك بتعاليم الإسلام [4].

وتمكن هذا الشيخ بفضل مساندة أعوانه من المسلمين الصوماليين من نشر الإسلام ليس في الصومال فحسب، بل وفي الهضبة الحبشية نفسها، حيث دخل في خدمة أحد الحكام المسلمين الذي كان ينوب عن الإمبراطور الحبشي (لبنادنجل) في حكم منطقة عدل، وتزوّج من ابنة الأمير المسلم لإقليم هرر المدعو (محفوظ)، وسرعان ما دخل في ثورة مناهضة لأمير هرر هُزم على إثرها، فالتجأ إلى منطقة أبت، ونظراً لسمعته الدينية ومناصرته للعدل والمساواة، فقد انضم إليه عدد من خصوم أمير هرر [5].

ورأى الإمام أحمد تسلّط نصارى الحبشة على مسلمي الصومال وتدّخلهم في شئونهم، فاتّخذ لنفسه سياسة تقوم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنصاف المظلومين، وإعلاء

(1) مطير غيث، المرجع السابق، ص 269.
(2) رجب عبدالحليم: المسلمون في أفريقيا، ص 11.
(3) فتحي غيث: الإسلام والحبشة عبر التاريخ، ص 150.
(4) عبد الرحمن النجار: الإسلام في الصومال، ص 74.
(5) عبد المولى الحرير: المرجع السابق، ص 109.

كلمة الدين، والمحافظة على استقلال وطنه، وأعلن المساواة بين الجميع، فلا فضل لعربي على صومالي إلا بالعمل الصالح، وحارب الفردية والروح القبلية، ودعا المواطنين إلى العمل الجاد المنتج لدعم اقتصاد الوطن، وَفَتَح المدارس، وبنى المساجد، وبعث الوفود إلى مختلف المناطق للدعوة إلى الله وذلك من أجل توحيد الجبهة الداخلية والوقوف صفاً واحداً أمام الأعداء، وحارب من أجل تحرير الأراضي الصومالية من نفوذ الأحباش[1]. والصراع المرير الذي تم بين الإمام والسلاطين المسلمين الذين كانوا في خدمة ملك الحبشة، كان منشأه دينياً صرفاً، فالحكام المسلمون كانوا يخدمون إمبراطوراً نصرانياً، الأمر الذي رآه الإمام أحمد بن إبراهيم منافياً للشرع، في الوقت الذي كان فيه المسلمون قادرين على بناء دولتهم، وفرض شرائعهم على المسلمين والوثنيين على حدّ سواء، أما السلاطين فقد رأوا أن الإمام يشكّل خطراً داهماً على مصالحهم ومراكزهم السياسية، نظراً لما أصبح يحقّقه من شعبية متزايدة بين المسلمين، الأمر الذي زاد من هوّة الخلاف بينهم، كما رأوا أن استقراره - في منطقة أبت - أصبح يمثل نقطة استقطاب وارتكاز للثوار المسلمين حوله، وعند ذلك أرسل إليه سلطان هرر صهره على رأس قوة كبيرة [2].

فأمضى الإمام سنواته الأولى في صراع مع السلطان أبوبكر سلطان هرر، وانتهى ذلك الصراع بقتل السلطان، وقام بتنصيب شقيقه ملكاً على هرر وتابعاً له [3]، ثم غزا بلاد الجالا وسائر الشعوب التي تجاور هرر، وزحف شمالاً إلى غندار فأكسوم [4]، وبعث إلى الأمراء في سائر الإمارات الإسلامية، يناشدهم الوحدة أمام العدو الذي يريد إذلال المسلمين ونهب خيراتهم، وأبان لهم أن الوحدة الإسلامية أمر ضروري للبقاء وللمحافظة على دينهم من أيدي أعدائهم المعتدين، وحدث أن تعرّض المسلمون في أرض الصومال لهجمات الأحباش بزعامة بطريق كبير منهم، حيث ضرب قرى كثيرة، وامتدت أيدي جيوشه إلى أرضهم بالسلب والنّهب، كما سبى أم أمير من أمراء المسلمين اسمه الأمير (أبوبكر فطين)، فقام

(1) عبد الرحمن النجار، المرجع السابق، ص 74 – 75.

(2) عبد المولى الحرير، المرجع السابق، ص 109.

(3) فتحي غيث، المرجع السابق، ص 151.

(4) عبد الرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا، ص 48.

الإمام يعبئ القوىٰ المسلمة ويدعو إلىٰ توحيد الصف، وجمع جيشاً مسلّحاً بسلاح الإيمان مع ما استطاع إعداده من عتاد، وكان عمره حينئذ واحد وعشرون عاماً [1].

بدأ يعمل علىٰ تحقيق الهدف الأكبر الذي شعر بأنّه قد خلق له، وهو أن يكون إماماً للمسلمين، ويستولي علىٰ جميع أرجاء الحبشة، وأعلن رفضه لدفع الجزية لملك الحبشة [2]، يقول توماس أرنولد: «وبمثل هذه الطريقة الآلية كان تحوّل كثير من الناس، وخاصة زعماء المسلمين الذين كانوا قد دخلوا في خدمة ملك الحبشة، وأولئك المرتدون الذين اتخذوا من غزو بلادهم علىٰ أيدي جيش المسلمين الفاتح الفرصة لأن ينبذوا في الحال المسيحية، وأن يخلعوا طاعتهم للملك المسيحي، ويعلنوا إسلامهم من جديد»[3].

وبعد أن رفض الإمام أحمد دفع الجزية للملك الحبشي، ومنع الجباة من دخول المناطق الإسلامية، أصبح قيام الحرب بينهما أمراً لا مفر منه، أعلن الجهادَ، واتخذ لنفسه راية أو علماً يحمل: «بسم الله الرحيم: إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً، نصر من الله وفتح قريب»[4] واتخذ إجراءات تنظيمية قسّم بموجبها البلاد الواقعة تحت إمرته إلىٰ خمسة أقاليم، جعل علىٰ رأس كل إقليم منها أميراً، وقد كان هؤلاء الأمراء أشدّاء علىٰ أعدائهم في تطبيق مبدأ الجهاد، وفي سنة (1529م) استولىٰ الإمام أحمد علىٰ إيفات بعد قتال مرير تمكن فيه من دحر القوّات الحبشية، وأسر بعض الأمراء والأميرات الذين افتداهم الإمبراطور فيما بعد بكميّة كبيرة من الذهب، وفي سنة (1531م) عبر نهر أوشي، وغزا مملكة شوا الحبشية، وأحرق كنائسها وأديرتها بعد أن هزم جيوش الإمبراطور الذي فرّ طالباً النجاة نحو الشمال ملتجئاً إلىٰ هضاب (جود جام) الصعبة[5].

وفي سنة (1533م) عاد الجراني مرة أخرىٰ لغزو هضاب (جودجام) الصعبة، ولكن الإمبراطور الحبشي بالغ في الهروب شمالاً إلىٰ منطقة (دمبيا) شمال بحيرة طانا، وتمكّن الإمام

(1) عبد الرحمن النجار، المرجع السابق، ص 74 – 75.

(2) حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص 169.

(3) توماس أرنولد: الدعوة إلىٰ الإسلام، ص 291 – 292.

(4) عبدالمولىٰ الحرير، المرجع السابق، ص 115، نقلاً عن عرب فقيه: فتوح الحبشة، ص 9.

(5) المرجع نفسه، ص 110 – 111.

في هذا الفتح أن يوصل ممتلكاته بمملكة سنار السودانية المسلمة، ويعقد معها حلفاً ضد النصارى الأحباش، واستطاع في سنة (1536م) دخول عاصمة الإمبراطور (أكسوم) وحرقها وتخريب كنائسها[1].

حتى إذا كانت سنة (1537م)، سيطرت الجيوش الإسلامية على بلاد أثيوبيا كلّها، وأصبح إمبراطور الحبشة تعبيراً لا حقيقة له، وأخذت المسيحية في الانهيار تحت ضغط انتصارات المسلمين المتوالية، وأصبح الإمبراطور فاراً من بلد إلى بلد، وهو يقاسي (وقليل من أنصاره المخلصين) الجوع والعطش، ويلح عليه الإجهاد والمرض حتى مات وهو في أسوأ حالات البؤس والعوز، ودفع انتصار المسلمين الساحق بالمسيحيين إلى اعتناق الإسلام، فاعتنقته نسبة هائلة من السكان، فراراً بحياتهم وخوفاً من السبي والتشريد، وبذلك أصيبت المسيحية في إثيوبيا بانهيار لم تلقه في سالف أيّامها [2].

ثم وصلت حملة برتغالية كان قد طلبها الإمبراطور (لبنادنجل) قبل وفاته إلى ميناء مصوّع سنة (1541م)، وكان لوصولها صدى كبير في البلاد، وكانت تتكوّن من 450 من المحاربين المسلّحين بالأسلحة والمدفعية الحديثة، وسرعان ما انضم إليهم بعض الأمراء القدامى وأتباعهم مثل (إسحق بحر نجش – أي أمير المقاطعة البحرية) وتمكّنوا من الحصول على تأييد قبائل التيجري، ووجد الإمام نفسه مضطراً للحيلولة دون اتصال الجيش البرتغالي مع القبائل المعادية، ولكن عندما نشبت المعركة مع هذه الأسلحة النارية الحديثة التي لم تعهدها الحبشة من قبل، لحقت الهزيمة بقوات الإمام أحمد في سنة (1543م) وأصيب هو بجراح [3]. وحُوصر الإمام وجيشه حصاراً بحرياً من نصارى البرتغال وحصاراً برّياً من نصارى الحبشة، وأطلقوا عليه ألف طلقة نارية ذهبت فيها روحه الطاهرة إلى ربّها في عام (950هـ/ 1543م) [4]، بعد أن استمرت غزواته وحروبه خمسة عشر عاماً من (1528–1543م) [5].

(1) عبدالمولى الحرير، المرجع السابق، ص 111.

(2) زاهر رياض: الإسلام في إثيوبيا، ص 206 – 207، 211.

(3) فتحي غيث، المرجع السابق، ص 155 – 156.

(4) عبدالرحمن النجار: الإسلام في الصومال، ص 77.

(5) حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام، ص 169.

إن دخول البرتغاليين وحماسهم في حروبهم بجانب إمبراطورية الحبشة ضد المسلمين كان له الأثر الكبير في انتصارهم وإيقاف تقدّم القوّات الإسلامية، ولكن تأثير هذا الفتوحات في نفوس الأحباش بالغت الأثر، إذ اعتنق الشعب الإسلام في جماعات غفيرة، وليس من اليسير تغيير ديانة الناس ثم العودة مرة ثانية إلى ديانتهم الأولى، ولم تكن الكنيسة الحبشية ورجال الدين بقادرين على مواجهة هذا الموقف خصوصاً وأن فترة الخمسة عشر عاماً التي سيطر فيها الإمام أحمد على الحبشة قد فصمت عرى الروابط التي كانت تربط أفراد الشعب بملوكهم [1].

وكانت هرر قد تحوّلت إلى مركز ديني وعلمي، حيث زاد عدد المدارس والمساجد، وتزعّمت هرر الحركة التعليمية والدينية في شرق أفريقيا بلا منازع، وكثر الوافدون إليها من العلماء والأدباء والشيوخ وطلاّب العلم، وأصبح التعليم للجميع، وتعلّم التلاميذ الحساب والعلوم بجانب العلوم الدينية، وأصبحت اللغة العربية لغة التعليم، وقدم معلّمون من الحجاز ومصر واليمن لنشر اللغة وتعليم الدين لأبناء المنطقة، وظهرت المصاحف المصرية في الأسواق، وبدأ تدريس التاريخ وأشهر الأحداث، إلى جانب علوم الفقه والسيرة والتشريع، مما جعل هرر كعبة المخطوطات والمدونات التي ليس لها مثيل في شرق أفريقيا كلّها [2].

إن الإسلام لم يفرّق يوماً بين شخص وآخر، ولم يعترف يوماً بالتفرقة العنصرية، واعتبر الأفارقة هذا الدين ديناً أفريقياً، قاموا بتطبيق مبادئه ونشره بين مواطنيهم، وساعدهم في ذلك الدعاة المسلمون الذين كان همّهم وهدفهم الأول نشر الإسلام، وقد رأينا بعضاً من أشهر الدعاة الذين كان لهم دور في نشر الإسلام في جنوب الصحراء وتغيير مجريات الحياة في كثير من أجزاء القارة، وغير هؤلاء كثير ممن لم تذكره كتب التاريخ، أو ممن لم نشر له، ولكن حاولنا ذكر أهم هؤلاء الدعاة المسلمين، الذين وضعوا الأسس القوية لقيام حركات إسلامية أخرى من بعدهم، كالتي قادها فيما بعد عثمان دان فوديو وابنه عبدالله وغيرهم.

(1) فتحي غيث، المرجع السابق، ص 154.

(2) عبدالرحمن النجار، المرجع السابق، ص 76.

ثانياً: الطرق الصوفية:

التصوّف أو الوعي الصوفي:

لكي تكتمل الدراسة عن انتشار الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء لابد لي من الإشارة ولو قليلاً عن الطرق الصوفية ودورها في نشر الإسلام والعقيدة الإسلامية في تلك المنطقة، وإن كنت سأخرج عن النطاق الزمني للدراسة لأن دراستي هذه دراسة دعوة ومن الصعب تقييدها بزمن إذ هي سلسلة مترابطة مع بعضها البعض ومستمرة إلى يومنا هذا، لذا سأشير ولو إشارات بسيطة عن التصّوف وأهم الطرق الصوفية، وأهم الأدوار التي قامت بها لنشر الإسلام بين الأفارقة، وسأبدأ الحديث عن معنى التصوف أو الوعي الصوفي.

إن بذور الزهد الأولى موجودة في كل دين، بل في كل عقيدة سماوية تحت معاني التقوى والإيثار والتضحية والفداء، وعلى هذا فمعاني الزهد مثبوتة في القرآن لدى فضائل النفس المؤثرة للآخرة قبل الدنيا، الزراعة في الدنيا حقلاً للآخرة، ولا صحة لنسبة الزهد الإسلامي الأول إلى الرهبنة المسيحية أو غيرها فهذا أمر مشترك في كل عقيدة [1].

يقول بن خلدون عن التصوف: «هذا العلم من علوم الشريعة الحادثة في الملّة، وأصله أن طريقة القوم لم تزل (عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم) طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف»[2].

ولما تقدّم الزمن بالمسلمين وسادت المادية والبذخ، حافظ بعض المسلمين على سنة الرسول (ﷺ) والخلفاء (رضي الله عنهم) في الملبس، واحتجّوا بذلك احتجاجاً صامتاً على المادية والتبذير اللذين انغمس فيهما معاصروهم، فأُطلق عليهم الصوفيون، ولحق بهم ما يلحق عادة بالمحافظين، أي أنه لما ظهرت البدع وتشاحنت الفرق، وصار أصحاب كل بدعة وأنصار كل فرقة يدعون أن

(1) محمود، عبدالقادر: الفلسفة الصوفية في الإسلام «مصادرها ونظرياتها ومكانها في الدين والحياة»، دار الفكر العربي (القاهرة، 1386هـ/ 1966م) ص 43.

(2) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، مؤسسة دار الشعب (القاهرة، بدون تاريخ) ص 439.

فيهم زهادا، انفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم الصوفية، وأطلق هذا الاسم عليهم قبل نهاية القرن الثاني الهجري بقليل [1].

واختلف الباحثون القدامي والمحدثون حول أصل كلمة التصوّف، فالبعض يرجعها إلى كلمة (الصفاء) نسبة لصفاء القلب، وبعضهم يقول: إنها مأخوذة من الكلمة اليونانية (Sophos) أي الحكمة، غير أن هذا الرأي مستبعد، لأن عناصر التصوّف مأخوذة عن الإسلام، وهناك فريق آخر يرى أن الكلمة منسوبة إلى كلمة الصوف للتدليل على تقشّفهم وزهدهم، وعكوفهم على العبادة [2].

إن العديد من العلماء تطرّقوا إلى موضوع التصوّف وألّفوا العديد من الكتب والرسائل في التعريف به والكشف عن فلسفته، يقول الدكتور قاسم غني عن مفهوم التصوف: «التصوّف أو العرفان في نظر المسلمين هو طريقة يمزج الدين فيها بالفلسفة، ويرى معتنوها أنها هي وحدها الكفيلة بالوصول إلى الحق، وهذا الوصول إلى الكمال والحق، متوقّف على السير والسلوك والتفكير والمشاهدة التي تؤدي بصاحبها إلى الوجد والحال والذوق، وتوصل الإنسان في النهاية بطريقة رمزية إلى الله تعالى، وسالكوا هذه الطريقة يعرفون بالصوفية، أو العارفين وأهل الكشف، وهم يسمّون أنفسهم بأهل الحق»[3].

يقول الشيخ مختار الكنتي [4] معرّفاً بالتصوّف: «التصوّف أو علم الباطن طريق روحاني، تسلكه القلوب، فتقطعه بالأفكار حسب العقائد والأبصار، أصله نور سماوي ونظر إلهي، يقع في قلب العبد ينظر به نظرة فيرى أمر الدارين حقيقة» ويقول أيضاً: «اعلم أن مذهب الصوفية ظاهر وباطن، فظاهره استعمال الآداب والأخلاق الحسنة مع الخلق، وباطنه

(1) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، 3/ 227 – 228.

(2) علي الشطشاط: وسائل انتشار الإسلام، ص 479.

(3) بطران، عزيز: الشيخ المختار الكنتي الكبير وأثره في نشر الإسلام، مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني لسنة 1981م، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية (طرابلس، 1401هـ/ 1981م) ص 323.

(4) هو سيدي المختار الكنتي الكبير، ولد في أزواد وأمضى سني صباه مرتحلاً في طلب العلم وظهر نبوغه، وسرعان ما وفدت عليه جموع الطلبة من الأفارقة، وله يرجع الفضل في بلورة الطريقة القادرية وصبغها بطابع أفريقي سوداني صحراوي، عزيز بطران، المرجع السابق، ص 317.

منازل الأحوال والمقامات مع الحق، وأن الظاهر علامة الباطن، والباطن حقيقة الظاهر»[1].

فالتصوف عنده ثلاثة علوم تعرف جميعاً بعلم الدين، أما العلمان الآخران، فهما علم الشريعة الظاهرة، وعلم الغيب الخاص بالأنبياء والأولياء، ومعرفة هذا العلم الباطن – أي التصوّف – لا تتم إلا بعد إلمام كامل بعلم الشريعة إذ التصوف على حد تعبير الشيخ الكنتي وراء سور الفقه، بل هو ثمرة علوم الشريعة [2].

فالتصوّف تجربة حياتية، وفلسفة عملية، تتعامل مع مستويات الوعي العليا، ومن الطبيعي أن يتعارض المنهج المؤدي إلى هذه المستويات مع المناهج المادّية للحياة، والطريقة الصوفية تسعى إلى التخلّص من أيّ تعلّق مادّي، وتجرّد النفس من الميول والرغبات لغير العالم الروحي استعداداً للاتصال به، وتمثل الإرادة هنا المبدأ الأول أو منطلق السّالك، والشرط الضروري الذي تنتظم بموجبه لَبِنات السُّلّم الصاعد نحو المطلق، وما يوضّح دور الإرادة هنا هو أن المتصوّف في بداية سلوكه الطريق يسمّى (المريد)، وبعد الإرادة تبدأ (الرياضة) وهي عبارة عن مجموعة من التقنيات التي يمارسها المريد لتهذيب النفس وتدريبها على ترك الميول الدنيوية، وترويضها على حياة الخلوة والفردانية [3].

والصوفية يوجّهون المريدين ويثقّفونهم ويدعونهم من خمس إلى خمس: «من الجهل إلى العلم، ومن الشك إلى اليقين، ومن الرغبة إلى الزهد، ومن الشحّ إلى سخاء النفس، ومن النظرة إلى المعرفة» ويقول الشيخ مختار الكنتي إن من واجب المريد بل ومن مصلحته أن يختار شيخاً متأهلاً ذا تجارب وعلم ومعرفة، شيخاً جعل الحقيقة معاشاً والشريعة رياشاً يكرع في حياضها، فقد قيل: «من تعلّق بشيخ واصل وصل ومن تعلّق بشيخ غير واصل بار وانفصل». ومن واجب المريد عند ملازمته للشيخ المربّي أن يسلّم أمره ونفسه إليه، بأن يستغرق نفسه كلها في الشيخ لا يبقى له من نفسه شيء، وهذا ما يسمّى في عرف الصوفية بالإطراح التام بين يدي الشيخ وبالملازمة [4].

(1) عزيز بطران، المرجع السابق ، ص 323.

(2) المرجع نفسه، ص 323.

(3) الجابري، صلاح: الرؤية الصوفية وتطور الوعي في إطار العلم الحديث، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد (20) لسنة 2003م، جمعية الدعوة الإسلامية (طرابلس، 1371و.ر/ 2003م) ص 225.

(4) عزيز بطران، المرجع السابق، ص 323 – 324.

إن التأمل هو السبيل الجوهري للغياب عن الحس والاقتراب من المطلق، وعندما يتحقق عنصر الإرادة والرياضة، تبدأ درجات الإيغال في التجريد، والهدف من وراء هذه المقامات هو بلوغ مرحلة الكشف والإلهام والتوحد بالمطلق [1].

وقد أبرز الكثير من الصوفيين في كتاباتهم العلاقة الوطيدة بين الشريعة والتصوّف، وهم يقولون: «إن التصوّف هو باطن الشريعة الخفي بل لبّها، وليس من المستطاع الوصول إلى اللّب إلا بعد إزالة القشر، أي بعد التمكّن التام من الشريعة»[2].

أما عن خصائص وميزات الصوفية فهي الحب الإلهي الذي يسمو بالتصوّف إلى معرفة الله، والعاطفة فيه ليست عاطفة ناشئة عن خوف أو رهبة، بل إنها حب خالص يربط الإنسان بخالقه[3]، ويصف الكنتي خصائص الصوفية: «العبادة حليفهم، والفقر كرامتهم، وطاعة الله حلاوتهم، وحبُّه لذّتهم، وإلى الله حاجتهم، والتقوى زادهم، ومع الله تجارتهم، وعليه اعتمادهم، وبه أنسهم، وعليه توكلّهم، والجوع طعامهم، والزهد ثمارهم، وحسن الخلق لباسهم، وطلاقة الوجه جليسهم، وسخاوة النفس حرفتهم، وحسن المعاشرة صحبتهم، والعلم قائدهم، والصبر سائقهم، والهدى مركبهم، والقرآن حديثهم، والسكون بيتهم، والذكر نهجهم»، فالصوفية في نظره هم خاصة الخاصة، وهم شيوخ التربية، والمعلمون الروحيّون، تميّزوا عن عامة الناس بوقف حياتهم وجهدهم على تحصيل العلم، جمعوا بين الشريعة والحقيقة وتبحّروا فيهما، وعرفوا دقائقها وأسرارها، ولذا حق لهم أن يجلسوا للإرشاد وتربية المريدين بأحوالهم الذكية وأخلاقهم المرضية وهممهم العلية [4].

وأُسس الطرق الصوفية كما يصفها الشريف العيدروس في كتابه بغية الآمال في تاريخ الصومال ستة هي: «التوبة، والعزلة، والزهد، والتقوى، والقناعة، والتسليم» وأحكامها ستة هي: «العلم، والحلم، والصبر، والرضا، والإخلاص، والأخلاق الحسنة» وغاياتها ستة هي: «المعرفة، واليقين، والسخاء، والصدق، والشكر، والفكر» وواجباتها ستة هي: «ذكر الله،

(1) صلاح الجابري، المرجع السابق، ص 225.

(2) عزيز بطران، المرجع السابق، ص 323.

(3) علي الشطشاط، المرجع السابق، ص 479.

(4) عزيز بطران، المرجع السابق، ص 323 – 324.

وترك الشهوات، وترك الدنيا، وإتباع الدين، والإحسان إلى المخلوقات، وفعل الخيرات» ووظائف أهل الطرق ودرجاتهم ستة هي: «الخلفاء، والرؤساء، والشادون، والنقباء، والمنشدون، والخدام»[1].

أما عن انتشار الطرق الصوفية، فقد كانت واسعة الانتشار في شبه الجزيرة العربية ومصر والشمال الأفريقي، وهي تمثل نموذجاً آخر من النماذج التي جسّدت وترجمت الخصائص الدينية للإسلام، وقد كانت الطرق الصوفية واسعة الانتشار، وبالذات في المناطق التي يوجد بها فراغ روحي، حيث وجد الناس في الالتفاف حول شيخ الطريقة الصوفية، وفي الانضمام لحلقات الذكر، ما يشبع غريزتهم في البحث عن الأمان والاطمئنان[2].

وانتشر الإسلام بين الأفارقة عن طريق بعض هذه الطرق الدينية التي استطاعت أن تثبت وجودها في كثير من المناطق الأفريقية، وأن تحوّل الصحراء القاحلة إلى مناطق مزدهرةٍ ومجالٍ حيويٍ بعد أن بعثت فيها الحياة والطمأنينة، فبدأت تظهر مؤسسات دينية واجتماعية وثقافية متعددة، تقوم بكل وسائل الترغيب في نشر الدعوة الإسلامية ابتغاء مرضاة الله وحسن ثوابه في الآخرة، وهداية الناس، وقامت بتأسيس المساجد وفتح المدارس، والمصاهرة مع أهالي البلاد التي يتردّد عليها المسلمون أو يستوطنوها، وشراء العبيد لتعليمهم مبادئ الدين الحنيف، ثم إعتاقهم لوجه الله وإعادتهم إلى أوطانهم ليدخلوا إخوانهم في الدين[3].

إنهم رهبان الليل وفرسان النهار، فهم يجتمعون في حلقات يرفعون أصواتهم يجأرون إلى الله بالدعوات، وينشدون القصائد في مدح الرسول (ﷺ)، حتى إذا ما جد الجدّ ونادى منادي الجهاد، سارعوا بدافع من عقيدتهم إلى حمل أسلحتهم وتقدّموا صفوف المقاتلين، واعتبروا ذلك جهاداً في سبيل الله، ومن شدّة تمسّكهم بقيم دينهم تجدهم يسمّون الأجانب غير المسلمين نصارى، أما كلمة يهودي عندهم فهي من أخس الكلمات وأبشعها لديهم، ولا يحبّون سماعها، ويعتبر التعاون من العناصر الأساسية في هذه الدعوة، فهذا التعاون الأخوي

(1) عبدالرحمن النجار، المرجع السابق، ص 68.

(2) علي الشطشاط، المرجع السابق، ص 479 – 480.

(3) المرجع نفسه، ص 480.

هو المحور الأساسي في عقيدة المتصوّفين، هدفها هو التقدّم المادي والمعنوي، ومساعدة الضعفاء، ونشر العلم والدين[1].

وقد قامت الطرق الصوفية بمقاومة حملات التنصير والاستعمار، حيث إن التنصير يدخل إلى البلدان الأفريقية بأسلوب مقنع، فهو يذهب متخفياً وراء مستوصف لعلاج المرضى، أو مدرسة للتعليم، أو مزرعة يعمل فيها فلاّحون، أو مصنع من المصانع، ومن هذه الأساليب ينشر دعوته برفق ولين، وكثيراً ما يستخدم الإغراء المادي[2]، ولم يكن غرضه منها جميعاً تمكين الأفارقة من العلم والمعرفة، وإنما كان الغرض تفريغ الأفريقي من أفريقيته وإنسانيّته، وإذا كان الاستعمار قد استهدف جسد الأفريقي وثرواته الطبيعية، فإن التنصير قد استهدف روح الأفريقي وثقافته، تراثه، وقد عبر الأستاذ سونو (Sono) عن هذا المعنى بقوله: «اتجّه المستعمرون إلى استعباد جسد الأفريقي، أما المنصّرون فقد استهدفوا روحه»[3].

وقد علّق سيمونز في كتابه لون البشرة دائرة، على دور البعثات التنصرية في أفريقيا بالقول: «جاء الرجل الأبيض إلى أفريقيا وبيده الإنجيل، ولكن بعد أن مرّت عقود قليلة، أصبحت الأرض للرجل الأبيض، وأصبح الإنجيل بيد الزنجي» فالتنصير لم يكن إلا وسيلة من وسائل الاستعمار، فحين يقيم المنصرون الكنائس الجميلة وسط الحدائق الخضراء المحاطة بالأشجار الباسقة فإنّهم لا يقصدون بذلك خدمة الرب، وإنما خدمة القوى الاستعمارية التي ارتأت وقف الاسترقاق وأرادت توجيه ضربتها الأخيرة القاصمة وهي الاستحواذ على الأرض والثروات وتقزيم الأفريقي، وتفريغه من أفريقيّته وثقافته وتراثه[4].

ولقد تيقّظت الطرق الصوفية لخطر هؤلاء المبشرين وأسموهم المغوين، أي الذين يغوون الناس، وليسوا مبشّرين لهم، وقام شيوخهم يناهضون الحركة التبشيرية المسيحية، باعتبار أنها مدفوعة من الاستعمار الذي لا يريد لأهل هذه البلاد خيراً، ويحذّرون المسلمين

(1) عبدالرحمن النجار، المرجع السابق، ص 67 – 68.

(2) المرجع نفسه، ص 72.

(3) الكحلوت، عبدالعزيز: التنصير والاستعمار في أفريقيا السوداء، جمعية الدعوة الإسلامية (طرابلس، 1421هـ/ 2006م) ص 67.

(4) المرجع نفسه، ص 68.

من خطرها، ويدعون إلى الجهاد المقدّس باسم الإسلام، وينشرون تعاليم هذا الدين الحنيف، وحبّوا إلى مريديهم التعاون والاتحاد والتمسك بمكارم الأخلاق، كما حببوا إليهم البذل والتضحية بالنفس والمال في سبيل الدين والعقيدة [1].

وسأتطرق إلى بعض أهم الطرق الصوفية، التي كان لها دور كبير في نشر الإسلام جنوب الصحراء الكبرى ومقاومة حملات التنصير والحملات الاستعمارية.

أشهر الطرق الصوفية في أفريقيا جنوب الصحراء:

1- الطريقة القادرية:

وتنسب هذه الطريقة إلى الشيخ الإمام العالم الزاهد شيخ الإسلام أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح موسى بن عبد الله بن يحيى، ينتهي نسبه إلى سيدنا علي بن أبي طالب (رضى الله عنه) ونسبه الجيلاني أو الكيلاني، ولد في جيلان (وراء طبرستان) سنة (471هـ/ 1078م) [2].

دخل بغداد سنة (488هـ)، وله من العمر ثماني عشرة سنة، وهي السنة التي خرج فيها أبو حامد الغزالي من بغداد [3]، فتفقه على أبي سعيد المخرمي، وصحب الشيخ حمّاد الدّباس [4].

وكان الشيخ عبدالقادر كريم الخلق، جليل القدر، متواضعاً للفقراء، مهيباً لدى الحكام، لم يلم قط بباب وزير ولا سلطان، وكان على الهمة، شيخاً مؤثر الغيرة، رحيماً رحب الصدر، مجاب الدعوة، وقد اتفق المؤرخون على كثرة كراماته، يقول العزّ بن عبد السلام: «أنه لم تتواتر كرامات أحد من المشايخ إلا الشيخ عبدالقادر فإن كراماته نقلت بالتواتر»[5].

(1) عبدالرحمن النجار، المرجع السابق، ص 69.

(2) الجيلاني، سيدي عبدالقادر بن أبي صالح: الفتح الرباني والفيض الرحماني، المكتبة العصرية (بيروت، 1425هـ/ 2004م) ص 11.

(3) ابن الأثير: البداية والنهاية، 12/ 149.

(4) عبد القادر الجيلاني، المصدر السابق، ص 11.

(5) حسن عبدالظاهر، المرجع السابق، ص 384.

ثم مال الشيخ الجيلاني إلى التصوّف، ولجأ للخلوة ومجاهدة النفس[1]، وإليه تنسب الطريقة القادرية فهو مؤسسها وإمامها، نشأت على يديه في القرن الخامس الهجري، وقد اتسم هذا القرن بنهضة علمية واسعة، وتيّارات فكرية وفلسفية وإصلاحية، وبرز فيه أئمة منهم حجة الإسلام الغزالي والإمام عبد القادر الجيلاني، الذي استطاع أن يرجع بالتصوّف إلى ما كان عليه في العصر الأوّل حيث يقول: «كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة، طِرْ إلى الحق عز وجل بجناحي الكتاب والسنّة، وادخل عليه ويدك في يد رسول الله (ﷺ)»[2].

وانتشرت هذه الطريقة في العراق والشام، كما انتشرت في شمال أفريقيا، وكانت أظهر ما تكون في المغرب الأوسط وفي تونس، ثم جاء بها مهاجرون من اليمن وحضرموت إلى شرق أفريقيا، وكانت أوّل الطرق الصوفية التي عُرفت هناك، وكان من أهم مراكزها مصّوع وزيلع ومقديشو، ويُذكر أن عبدالله العيدروس (م: سنة 909هـ/ 1503م) أدخل هذه الطريقة إلى هرر، ومنذ ذلك الحين أصبحت أكثر الطرق انتشاراً في إقليم هرر [3].

وتغلغلت هذه الطريقة داخل شرق أفريقيا وبين أهل البادية، وزاد نفوذها عندما أسس الشيخ إبراهيم حسن جبرو مركزاً لها عند بلدة تقع على نهر جوبا، اسمها برديوه، وفي هذه المنطقة تأسس أول مركز من مراكز استيطان الجماعات الصوفية لزراعة الأرض واستخراج خيراتها لذلك يطلق عليهم اسم (جمامة أو شمامة) نظراً لقدمها وبدء هذا النظام فيها [4].

وعلى يد بعض المهاجرين من واحة توات، (إحدى الواحات في القسم الغربي من الصحراء الكبرى)، انتشرت الطريقة القادرية في السودان منذ القرن التاسع عشر الهجري/ الخامس عشر الميلادي، واتخذ أولئك المهاجرون من ولاته أوّل مركز لطريقتهم، ثم مدينة تنبكت، ونشطت جماعة القادرية في كل من الصحراء الكبرى والسودان، وكان منهم الدعاة والعلماء والمدّرسون والتجار، ممن حملوا راية الدعوة إلى الإسلام في تلك البلاد، دعوة وتعليماً وجهاداً [5].

(1) أحمد شلبي، المرجع السابق، 6/ 212.
(2) حسن عبدالظاهر، المرجع السابق، ص 385.
(3) عبدالرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا، ص 62.
(4) عبدالرحمن النجار، المرجع السابق، ص 68.
(5) علي الشطشاط: وسائل انتشار الإسلام، ص 481.

ولم يمض زمن طويل حتى برز فقهاء متفقهون، وجماعات صغيرة من المريدين الذين يلتحقون بالطريقة القادرية رسمياً بعد أخذهم الأوراد، (وهي مزيج من أذكار وأدعية وأحزاب تنسب إلى الشيخ عبد القادر والشيخ المختار الكنتي الكبير، ويصفها الشيخ مختار بأنها: «عقود وعهود أخذها الله على عباده بواسطة المشائخ») ويعتقد المريدون في غرب أفريقيا والصحراء بأن هذه الأوراد جمعت بركة الشيخين الجيلاني والكنتي، وتقام في كتمان وسرّية وعزلة تامة، لأنهم لا يقرُّون الجهر بها، ومع أنّهم يعدّون السماع مباحا إلاّ أنهم لا يقرّونه ولا يسمحون به ويقولون إنّ السماع نقيصه في الرجالة، خسيسة في الحال، يقول الشيخ مختار: «فالأوراد وإن اختلفت ألفاظها فموردها واحد، وهو التقرّب إلى الله تعالى، والتبرّي من الحول والقوة، والزهد في الدنيا، ومعرفة جلالات الله تعالى وكبريائه، والتوكّل عليه»[1].

وانتشر المريدون في أرجاء السودان الغربي من السنغال إلى مصب النيجر، ونهضت المراكز الرئيسية لتنظيم دعوة القادرية في كتكا وتيمبو (بفوتاجالون) وموسرودو (ببلاد الماندنجو)، وكانت هذه المدن تؤلف مراكز النفوذ الإسلامي وسط شعب وثني رحّب بالقادرية باعتبارهم فقهاء وكتّاب تمائم ومعلّمين، وتسلّطت القادرية على كل من يتّصل بها شيئاً فشيئاً، وسرعان ما تطوّر الدخول في الإسلام من حالات فردية إلى حالات جماعية، ومن هؤلاء الذين أسلموا كانوا يرسلون إلى مراكز الطائفة لإتمام دراستهم، أو كانوا يبعثون إلى معاهد القيروان أو طرابلس أو فاس أو الأزهر، وربّما قضوا في تلك البلاد عدة سنوات، حتى يتقنوا دراستهم الدينية، ثم يعودون إلى أوطانهم لنشر عقيدتهم[2].

وكان المسلمون الذين تربّوا في مسلك نظام الصوفية التي كانت تقوم على حب الجار والتسامح، يؤسسون المدارس في السودان، ويقومون بالإنفاق عليها[3]. وكان نشاط القادرية في الدعوة ذا طابع إسلامي، يعتمد على الإرشاد، وأن يكون الواحد منهم قدوة لغيره، وبهذه السيرة برهن دعاة القادرية على أنهم أوفياء لمبادئ مؤسس الجماعة الذي أوصى تلاميذه بهذا السلوك السمح[4].

(1) عزيز بطران: الشيخ مختار الكنتي الكبير، ص 327 – 328.

(2) عبدالرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا، ص 111.

(3) حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام، ص 34.

(4) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص 365 – 366.

ومن أشهر قادة القادرية في أفريقيا سيدي أحمد البكاي الذي عاش في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وعمل على نشر الدعوة في الجزء الغربي من الصحراء الكبرى، وتعرف طريقته بالبكائية، وقد ازدهرت في أفريقيا، ومنهم محمد بن عبدالكريم التلمساني، الذي اتجه بجهوده إلى الجزء الأوسط من الصحراء من بلاد الهوسا، والشيخ السيد التأرازي الذي عمل على نشر القادرية في غامبيا وغينيا وساحل الذهب [1].

ومن فرق القادرية الطريقة التي تفرّعت عنها والتي تنسب إلى الشيخ محمد فضل الذي كان زعيماً لأهل (طالب مختارة) وهم من الصناهجة الذين يعيشون في منطقة الحوض بالصحراء، كذلك الطريقة المريدية التي تزدهر في السنغال، فهي شعبة من القادرية وأسّسها رجل يدعى (أمادوبامبا) (أحمدو) من قبيلة الولوف، وأصله من التوكولور، وقد أسست هذه الطريقة نفسها على أساس جماعي تعاوني، لكل فرد منهم نصيب معين من العمل [2].

2- الطريقة التيجانية:

من الفرق التي كان لها دور جليل في نشر الإسلام في أفريقيا، وتنسب إلى الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد المختار بن سالم التيجاني[3]، كان أحد أهالي قرية عين ماضي بالجزائر، وتنقّل في البلاد الإسلامية، بين تلمسان ومكّة والمدينة المنوّرة والقاهرة، وتتلمذ على شيوخها، ثم أسس طريقة صوفية جديدة ثم عاد إلى فاس واتخذها مركزاً لنشر دعوته، وقضى الشطر الأكبر في حياته متنقّلاً لتنظيم شئون طريقته[4].

ورأي أتباع هذه الطريقة أن الجهاد واجب لنشر الإسلام وأن التسامح القادري لم يثمر في بعض الجهات الصحراوية التي دعوا فيها إلى الإسلام لذلك علّموا أتباعهم فنون الحرب

(1) علي الشطشاط: وسائل انتشار الإسلام، ص 481 – 482.

(2) عبد الرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا، ص 112 – 113.

(3) ابن العربي، علي حرازم برادة المغربي الفاسي: جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التيجاني، تحقيق: عبد اللطيف عبدا لرحمن، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية (بيروت، 1417هـ/ 1997م) 1/ 23، 25.

(4) حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام، ص 44 – 45.

وأمدوهم بالأسلحة، ثم بدأوا بسلسلة من الحروب لنشر الإسلام حول النيجر الأعلى والسنغال [1].

ويسمّى أتباع هذه الطريقة بالأحباب، وقد حُرّم عليهم الانتظام في سلك طريقة أخرى، وتتميّز هذه الطريقة بتزمّتها الشديد، ومناهضتها للطرق الصوفية الأخرى، وانتشرت هذه الطريقة انتشاراً واسعاً في أفريقيا السوداء، وتفرّعت عنها شعبة (الحمالة) [2].

ولما مات مؤسس الطريقة التيجانية، انتقلت الوصاية إلى ولديه محمد الكبير ومحمد الصغير وإلى محمود بن علي التونسي ثم خلفه في الوصاية عليهما الحاج علي بن عيسى شيخ زاوية تجانية في (تحاسين) ولما قتل محمد الكبير في إحدى الحروب التي شنّها أمراء الجزائر على أصحاب هذه الطريقة، تولّى محمد الصغير شؤون الطريقة، وأخذ ينشر الطريقة، ولاسيما في الصحراء الكبرى والسودان، وذلك بإرشاد من الحاج علي بن عيسى [3].

وظهرت الطريقة التيجانية في السودان الغربي على يد الحاج عمر الفوتي، الذي كان أبوه من المرابطين، وقامت على أساليب القادرية في الدعوة، وساعدت كثرة مدارس التيجانية على نشر تعاليمهم التي كانت متأثرة بتعاليم القادرية والمرابطين، الذين نشروا تعاليمهم بين القبائل الوثنية حول نهر النيجر الأعلى والسودان، وذلك في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، وعندما كثر أتباع الحاج عمر، نظر إليه الناس بوصفه مهديّاً منتظراً جديداً، وفي سنة 1841م بلغ الحاج عمر جبال (فوتا جالون) وبدا سلسلة من الحملات لنشر تعاليم التيجانية بين القبائل التي كانت لا تزال على الوثنية، والتي كانت تقيم حول النيجر الأعلى والسنغال [4].

(1) محمد أحمد: المسلمون في غينيا، ص 26 – 27.

(2) عبد الرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا، ص 113.

(3) علي الشطشاط، المرجع السابق، ص 483.

(4) حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام، ص 46.

3 – الطريقة السنوسية:

من الفرق الصوفية التي كان لها أثر بعيد في نشر الإسلام في القارة الأفريقية، وتنسب هذه الطريقة إلى مؤسسها الفقيه الجزائري سيد محمد بن علي السنوسي، وقد بدأ بها في عام (1837م) لإصلاح شأن الإسلام ونشر الدعوة، وهذه الطريقة متأثرة بتعاليم الوهابية، ولما توفي سنة (1859م)، كان قد نجح في تأسيس دولة دينية، وقد انتشر أتباع السنوسية في أفريقيا الشمالية، وتناثرت زواياها في غربي الدلتا إلى المغرب، كما امتدّت إلى الداخل في واحات الصحراء الكبرى وفي السودان [1].

وكان الفقيه محمد السنوسي قد استطاع قبل وفاته أن يجعل من مدينة الجغبوب مركزاً لنشر الإسلام بين الزنوج الوثنيين، وتغلغلت السنوسية إلى تلك الجهات وخاصة في واداي، حيث قبل سلطانها محمد الشريف أن يُدخل الطريقة السنوسية في سلطنته، وظلّ من أكبر أتباع السيد محمد حتى وافته المنيّة [2].

ومن مركزهم في الجغبوب كان يتعلّم مئات الدعاة في كل عام، ثم يُرسلون إلى كافة أنحاء أفريقيا الشمالية، دعاة للإسلام وفي أرجاء السودان والحبشة وسنغامبيا والصومال، وكان السنوسيون يقومون بشراء عبيد كانوا يعلّمونهم في الجغبوب، وإذا ما رأوا أنهم تعلّموا مبادئ الفرقة تعليماً كافيا، أعتقوهم وأعادوهم إلى أوطانهم ليدخلوا إخوانهم في الإسلام [3].

4- الطريقة الميرغنية:

وتنسب إلى محمد بن عثمان الميرغني الذي كان يتمتّع بشهرة واسعة كمعلم ديني في مكة المكرمة، وكان الزعيم الروحي لجماعة الخضرية، وقد أرسل بن (إدريس) الميرغني في رحلة إلى أفريقيا لنشر الإسلام، ولما عبر البحر الأحمر إلى القصير شقّ طريقه حتى بلغ النيل[4]، ولكنّه لم يصادف في رحلته إلى أعالي النهر نجاحاً كبيراً حتى وصل إلى أسوان، ونجحت

(1) عبدالرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا، ص 17.

(2) المرجع نفسه، ص 124.

(3) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص 371 – 372.

(4) حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام، ص 43.

رحلته من أسوان حتى دنقلة نجاحاً تامّاً، وقد أسرع النوبيون إلى الدخول في الطائفة التي كان ينتسب إليها محمد عثمان الميرغني، وأثرت في هؤلاء الناس تلك الأبهة الملكية التي كانت تحيط به تأثيراً فعّالاً، كما جذبت إليه كراماته في نفس الوقت عدداً كبيراً من الأتباع، وفي دنقلة تحرك محمد عثمان من وادي النيل ليذهب إلى كردفان، حيث مكث زمناً طويلاً وهناك بدأ عمله في نشر الدعوة بين الكفار[1].

وكانت قبائل عديدة في هذه البلاد، وحول سنار لا تزال على الوثنية، ونجحت دعوته بين هؤلاء القوم نجاحاً رائعاً جدّاً، وعمل على توطيد نفوذه فيهم بأن تزوّج ببضع زوجات منهم، فتولى نسله منهن بعد أن مات في سنة (1853م) نشاط الطائفة التي أسسها، وتسمّوا ميرغنية نسبة إليه[2].

لقد كان للجهود الصادقة التي بذلتها الطرق الصوفية لنشر الإسلام بالتعليم والدعوة الخالصة أكبر الأثر في تحويل وإدخال الأفارقة من الوثنية إلى الإسلام، وتثبيته في نفوسهم، يقول بعض المؤرخين إنه لم تكن الطرق الدينية الصوفية وحدها العامل الأوحد في نشر الإسلام بغربي أفريقيا، ولكن سرعان ما كان الالتحاق بإحدى الطرق مراداً لاعتناق الإسلام، وأصبح كل مسلم يتبع طريقة[3].

(1) توماس أرنولد، المرجع السابق، ص 364.

(2) المرجع نفسه، ص 364.

(3) عبد الرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا، ص 109 – 110.

obeikandl.com

الخاتمة

إن تاريخ الدعوة الإسلامية في أفريقيا جنوب الصحراء، هو نفسه التاريخ الحضاري الناضج لأفريقيا، فهي بالدعوة افتتحت لنفسها صفحات التاريخ، وسارت في موكب الحضارة الإنساني وارتبطت بالعالم الإسلامي من حولها.

لقد تطرقت في هذه الدراسة إلى انتشار الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، فبدأت بنشوء وتطوّر العلاقات بين العرب والأفارقة استهلالاً بمقدمة جغرافية عن القارة وموطن الدراسة، ثم تطور العلاقات السياسية والتجارية العربية الأفريقية، وما كان للعرب قبل الإسلام من علاقات سياسية وتجارية وتواصل حضاري مع أفريقيا، فقد ذكرت أن التجار العرب والأفارقة أدّوا دوراً كبيراً في تعزيز هذه العلاقات وإدامة هذا التواصل.

ثم تناولت الهجرات الإسلامية ودورها في نشر الإسلام جنوب الصحراء الكبرى، ابتداءً من هجرة أصحاب رسول الله (ﷺ) واتصالهم بنجاشي الحبشة وتأثيرهم في الأحباش.

ثم تحدّثت عن التجارة والظروف التي ساعدت عليها ومعاهدة البقط التي فتحت أبواب التجارة على مصراعيها أمام التجار المسلمين، والتي نظّمت التجارة مع البلاد الإسلامية، ثم التجارة الكارمية، وأهم الموانئ والمراكز التجارية التي تحوّلت شيئاً فشيئاً من مراكز تجارية إلى مراكز ثقافية ودينية إسلامية، ساهمت بدور كبير في نشر الإسلام، ثم دور التجار المسلمين في نشر الإسلام جنوب الصحراء.

ثم جاء الحديث عن الدعاة والطرق الصوفية، وقد بدأت الحديث عن طبيعة الدين الإسلامي، ذلك الدين الذي دعا إلى المساواة والتسامح والتعاون، ولقي الترحيب من الأفارقة واعتنقوه وأصبحوا دعاته، ثم تكلمت عن الدعاة وأهم مراكز الدعوة من مساجد وأربطة وزاويا، وأشهر الدعاة الذين سمعنا عنهم وعن أعمالهم لنشر الإسلام هناك، ثم تناولت دراسة أشهر ثلاثة دعاة من ثلاث مناطق جنوب الصحراء، وتطرقت بعد ذلك إلى الطرق الصوفية فعرفت بها وبالتصوف أو الوعي الصوفي، ثم أهم الطرق الصوفية التي قامت بدور كبير في نشر الإسلام وقيادة الجهاد ضد الاستعمار.

وقد توصلت في نهاية هذه الدراسة إلى عدة نتائج أهمها:

1- إن مرحلة الهجرة والتواصل بين العرب والأفارقة على هيئة أفراد وجماعات كانت قديمة (ويمكن القول أنها بدأت منذ عصور ما قبل التاريخ، وتأثرت بعديد العوامل كالجوار والاقتصاد والثقافة) وهي التي كوّنت الأسس المتينة للعلاقات العربية مع بلاد ما وراء الصحراء في العصور اللاّحقة.

2- أظهر العرب قدرات عالية في التأثير على الجماعات الأفريقية التي سكنوا معها، وأسهموا في ترسيخ أسس العقيدة الإسلامية، حتى بدأ المواطنون الأفارقة يدعون إلى الإسلام بين مواطنيهم في حركة سلمية.

3- إسلام نجاشي الحبشة على أيدي المهاجرين المسلمين (رضوان الله عليهم) بعد هجرتهم إلى الحبشة فراراً بدينهم من أذى قريش، وأثر ذلك في ترسيخ الإسلام في تلك المناطق.

4- مساهمة الهجرات الإسلامية في نشر الإسلام بين الأفارقة نتيجة لاختلاطهم بهم وتزاوجهم معهم. وقد كان ذلك واضحاً في الجزء الشرقي أكثر من الجزء الغربي من القارة.

5- لقد كان السبب في انتشار المذهب السنّي هي الهجرة النبهانية التي أدّت بالشيرازيين الشيعة إلى الهجرة للمناطق الداخلية والاختلاط بالأهالي، بسبب اختلاف مذهبهم عن النبهانيين السنيّين الذين كان لهم الفضل في نشر المذهب السنّي هناك، وأن سبب هجرة علي بن الحسن وأتباعه نتيجة لكونه من أم صومالية مما جعل إخوته ينبذونه فقرّر الهجرة ومغادرة شيراز.

6- إن الهجرات الإسلامية وهجرات البربر وتحركات الشعوب الأفريقية كالبوهل والسراكولا والفولاني والبولالا، كان لها الفضل الأكبر في نشر الإسلام ودعمه بين شعوب جنوب الصحراء الكبرى.

7- كان لحركة التجارة الفضل الأول في فتح أبواب التعامل بين المسلمين والوثنيين، فكانت محكّاً جيّداً للتعامل بين حضارة الوثنيين الواهية والحضارة الإسلامية المميزة، التي استوعبت ما سواها، وكان تأثير التجارة واضحاً في الجزء الغربي من القارة، نتيجة

لاهتمام السلاطين العرب الذين كانوا تجّاراً اهتموا بالتجارة وجمع المال، فدور التجارة في نشر الإسلام كان أكثر فاعلية في غرب أفريقيا ووسطها.

8- قدوم أعداد كبيرة من التجار والفقهاء والدعاة المسلمين من الشمال الأفريقي ومصر، بعث نشاطاً ملحوظاً جنوبي الصحراء في العصور الوسطى، وأدى هؤلاء التجار والفقهاء واجبهم في نشر الإسلام، وتأثيرهم على الملوك الأفارقة الذين اعتنقوا الإسلام، فاقتدت بهم شعوبهم، ويمثل اعتناق الشعوب لدين حكامها ظاهرة واضحة في تاريخ الحركة الإسلامية.

9- مبالغة بعض المؤرخين في وصف الجهد الذي قام به المرابطون في نشر الإسلام بين أهل السودان الغربي، وقالوا إنه بفضلهم وحدهم ثم دخول الإسلام، في حين أننا نجد أن الإسلام تسرّب إلى هذه المنطقة بصحبة تجّار القوافل قبل المرابطين، وكان هؤلاء التجار يمنحون كامل الحرية في مزاولة تجارتهم وتأدية واجباتهم الدينية، بل والدعوة إلى دينهم في حرية مطلقة، والواقع أن المرابطين عملوا على الإسراع في تحويل الزنوج إلى الإسلام بدلاً من سير الدعوة ببطء تدريجي.

10- قامت الطرق الصوفية بدور جليل في نشر الإسلام بين الأفارقة، حيث قامت بفتح المدارس الدينية، وشراء العبيد وتعليمهم أمور الدين ثُمّ إعتاقهم وتزويدهم بالمال، حتى يرجعوا إلى بلادهم ويفتحوا المدارس، ويقوموا بنشر الإسلام بين مواطنيهم، كذلك ما يذكر للطرق الصوفية من تصدّيها ومحاربتها للاستعمار، حتى وُصفوا برهبان الليل وفرسان النهار.

11- إن تجربة الإنسان الأفريقي مع المنصّرين المسيحيين والدعاة المسلمين، خاصة في مطلع فترة التوسع الاستعماري، أعطت الأفريقي فرصة للمميزة بين الأديان، وانتهت هذه المميزة لصالح الإسلام، لكون العقيدة الإسلامية أقرب إلى بساطة الأفريقي، كما أصبح في أذهان الأفريقي أن المسيحية دين الرجل الأبيض.

12- لم تكن منطقة جنوب الصحراء الكبرى مجهولة أو غير معروفة كما يدعي الأوروبيين الذين وفدوا إليها لاستعمارها ونهب خيراتها، بل كانت حقيقة مجهولة بالنسبة لهم، لأنهم كانوا يعيشون في عصور الظلام والتخلّف وفي التناحر الديني والمذهبي، وهي ليست

كذلك بالنسبة للمسلمين الذين ارتادوها منذ زمن بعيد مهاجرين وتجاراً ودعاةً وصوفيين.

13- إن تحوّل طرق التجارة من المناطق الداخلية إلى المناطق الساحلية (باكتشاف رأس الرجاء الصالح وتطور الصناعة والمواصلات والبحث عن مصادر أخرى للتجارة) من أهم أسباب سقوط وانهيار المراكز التجارية والثقافية جنوب الصحراء لفقدانها أعظم مصادر دخلها ومعيشتها.

14- إن عراقة الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء تأصلت عبر القرون، وأصبحت جزءاً من حضارات وثقافات هذه القارة، حيث التقت روافد الهجرة والتجارة والعلماء والدعاة والطرق الصوفية عند مفهوم الدعوة، تنشرها وتدعمها في إطار الحياة اليومية، فمثلوا في مجتمع جنوب الصحراء نقطة مضيئة وسط ظلام الوثنية، ومثلوا بذلك طابعاً حضارياً كان موضع القدوة، ومثلوا نموذجاً راقياً من الإنسان والفكر والمظهر.

وفي الختام أسأل الله العلي القدير أن أكون قد وفقت في مسعاي، فإن كنت كذلك فمن الله وإن كانت الأخرى فمني وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.